رسالةُ العِتَابِ
لغسَّان بن عبد الحَمِيد
(دراسةٌ تحليليةٌ)

دكتــور
هشَام علي فتح الله أبو خشَبة
قسْمُ اللغةِ العربيةِ
كليةُ الآداب
جامعةُ الإسْكَندريةِ

رسالةُ العتَّاب لغسّان بن عبد الحميد – دراسةٌ تحليليةٌ

هشَام علي فتح الله أبو خشَبة
قسمُ اللغةِ العربيةِ وآدابها - كليةُ الآداب – جامعةُ الإسكندرية
البريدُ الإلكتروني: Hesham.ali@alexu.edu.eg

الملخصُ:

غسّان بن عبد الحميد واحدٌ من أعلام الكتّاب في العصر العباسي الأول، حاول البحث أن يعرف به، وبيئته، وعصره، ومصادر أدبه، والدراسات التي تناولت أدبه. ثم تناول رسالته في العتاب بالدرس و التحليل، فوقف مع البنية المعنوية لها وقفة متأنية، ودرس التشكيل الفني، فبحث في الخصائص الكتابية، والأسلوبية، والحجاج، والصورة، والبنية الإيقاعية، وانتهى البحث إلى خاتمة تعرض لأهم النتائج.

الكلماتُ المفتاحيةُ: غسّان بن عبد الحميد؛ رسالة العتاب؛ الحجاج العتابي؛ التصوير؛ الاستفهام الحجاجي.

The Letter of Repentance by Ghassan bin Abdul Hamid - An Analytical Study

Hisham Ali Fathalla Abu Khashaba
Department of Arabic Language and Literature - Faculty of Arts - University of Alexandria
E-mail: Hesham.ali@alexu.edu.eg

Abstract: Ghassan bin Abdul Hamid was one of the most prominent writers of the first Abbasid era. He tried to research to know about him, his environment, his age, the sources of his literature, and the studies that dealt with his literature. Then he dealt with his thesis on reproach with lesson and analysis, and stood with the moral structure for it a careful pause, and studied the artistic formation, researching the written characteristics, stylistic, pilgrims, image, and rhythmic structure, and the research ended with a conclusion presenting the most important results.

Key words: Ghassan bin Abdul Hamid, Reproach letter, Al-Hajjaj Al-Atabi Photography, Interrogation Al-Hajaji.

مدخـل:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد،

فبينما أتصفّحُ رسائلَ «جمهرةِ رسائل العرب» لأحمد زكي صفوت وجدته ينقل عبارة ابن طيفور (ت ٢٨٠هـ) في«المنثور والمنظوم»: «ومن الرسائل المفردات رسالة غسّان بن عبد الحميد المدائني كاتب جعفر بن سليمان في العتاب»(١). رجعتُ مسرعًا لأعرف قصة الرسائل المفردات، والتي هي مبثوثة في الجمهرة، وأصلُها في المنثور والمنظوم، فوجدت ابن طيفور يزعم أنّ هذه الرسائل لا نظير لها، وأنها أركان البلاغة التي استقى منها البلغاء(٢).

رسالة بهذه القيمة ينبغي أن تكون مشهورة جدًّا، كما ينبغي أن يكون كاتبُها ملءَ السمع والبصر، قد شَغَلَ المترجمين؛ فلم يتركوا شاردة ولا واردة عن حياته وأدبه إلا سجّلوها. لكنني دُهِشت حين وجدتُ كتب التراجم خِلْوًا من ذكره، ولم يذكره سوى النديم، الذي أثنى على بلاغته ومعانيه وعدّه في البلغاء.

نعم، هذا فقط؛ ومن ثَمَّ عَقَدْتُ العزم على دراسة أدب غسّان، لأتبيّن هل يستحقُّ هذه المنزلة أو لا؟، ثم قرّرتُ حَصْرَ العمل في رسالة العتاب؛ فهي خلاصةُ أدبه، ومن المفردات – كما زعم ابن طيفور–، وتساءلت هل تستحقُّ الرسالة هذا المدح والثناء؟، ثمَّ تركت الإجابة للبحث، ليكشف لنا النقاب عن الحقيقة، فليس الخبر كالمعاينة، وقطعت جهيزةُ قولَ كلِّ خطيب.

وقد حاول البحثُ أنْ يعرِّف بغسّان، وبيئته، وعصره، ثم تحدَّث عن مصادر أدبه، وموضوعاتِ رسائله، والدراساتِ التي تناولت أدبه.

وانقسم البحثُ بعد ذلك إلى قسمين: أحدهما: يتناول البنية المعنوية للرسالة، فيعرض لمضامينها عرضًا وافيًا. والآخر: يدرسُ التشكيل الفني، فيبحث في الخصائص الكتابية والأسلوبية، والحجاج، والصورة، والبنية الإيقاعية. وبعد ذلك كانت الخاتمة، وفيها ذكرٌ لأهم النتائج والتوصيات، وبعدها قائمةٌ بالمصادر و المراجع.

(١)جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، ١٠١/٣.

(٢) المنثور والمنظوم (القصائد المفردات التي لا مثل لها)، الدكتور: محسن غيّاض، تراث عويدات، (بيروت – باريس)، ١٩٧٧م، مقدمة التحقيق، ص ٢٥.

وقد اعتمد البحث المنهج التحليليّ، والذي يقوم برصد الظاهرة، ولا يكتفي بذلك، وإنما يقف معها مفسّرا ومحللا. وفي نهاية البحث ملحقٌ فيه نصُّ الرسالة كاملا، ليقف عليها القارئ، ويتبيّن بنفسه صوابَ ما أخبر به البحث من عدمه.

غسّان بن عبد الحميد:

لم نعثر على ترجمة وافية لغسَّان بن عبد الحميد في كتب التراجم، وكلُّ ما وجدناه عبارتان: إحداهما للجهشياري (ت٣٢١هـ) في «الوزراء والكتّاب»، نصُّها: «وكان غسّان بن عبد الحميد المدني كاتب سليمان بن عليّ يقول لخادمه: إذا قلتُ لك: خوِّض لنا سويقنا فخثِّرْه، فإنّ الرجل لا يستحيي أن يزداد ماء يُرقِّقه به، ويستحيي أن يزداد سويقًا يُخثّره به»[(١)]. والأخرى للنديم (ت ٣٨٥هـ) في «الفهرست»، ونصُّها: «غسان بن عبد الحميد: يكتب لجعفر بن سليمان بن عليّ، وكان بليغًا، حلو الكلام، لطيف المعاني، وله كتبٌ مدونة: كتابُ رسائله»[(٢)]. وأيضًا حين سرد النديم أسماء البلغاء ذكره فيهم[(٣)].

ومن هاتين العبارتين نعرفُ:

أنَّ غسان بن عبد الحميد كان يكتب لسليمان بن عليٍّ، وهو عمُّ أبي جعفر المنصور الخليفة ووالِيه على البصرة لسنة ١٣٣هـ، ثم كتب لابنه جعفر بن سليمان بن علي[(٤)] الوالي على المدينة سنة ١٤٦هـ، إذن فقد كان كاتبًا في بداية الدولة العباسية، ولم يكن كاتبًا عاديًا، وإنما كان صاحب أسلوب رصين، وعبارة بليغة ومعنى لطيف، وله كتاب يضمُّ رسائله، لكنه مفقود، ومع بلاغته هذه وشهرته لا نعرف شيئًا عن نشأته، وأسرته، وثقافته، ووفاته. وكلُّ ما هنالك أننا نعرف أنه أدرك خلافة المهدي؛ فقد كتبَ إليه رسالة تعزية[(٥)] في والده الخليفة أبي جعفر المنصور الذي (تُوفي سنة ١٥٨هـ).

---

(١) الوزراء والكتاب، قدّم له الدكتور حسن الزين، دار الفكر الحديث، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ص٧٢. السويق: طعام يُتّخذ من مدقوق الحنطة والشعير،وسُمّي بذلك لانسياقه في الحلق — خوّض الطعام : خاضه، أي: خلطه وحرّكه — خثّر الطعام: صيّره خاثرًا، أي: غليظًا.

(٢) الفهرست للنديم ت ٣٨٥هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت، ص ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(٤) انظر في ترجمته: الوافي بالوفيات للصفدي ت ٧٦٤هـ، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م، ١٣/ ٨٢.

(٥) جمهرة رسائل العرب،٣/ ١٣٠.

هل غسّان بن عبد الحميد الكاتب هو غسَّان بن عبد الحميد راوي الحديث؟

فحوى الإشكال أنّ هناك رجلين: أحدهما كاتبٌ بليغٌ، عمل في الدواوين الرسمية، والآخر راوٍ من رواة الحديث، كلاهما يُدعى غسّان بن عبد الحميد، وكلاهما وُجد في الفترة الزمنية نفسها أيضًا، ونزلا أماكن واحدة كذلك، فهل الرجلان رجل واحد أم أنهما شخصيتان مختلفتان؟ هذا يحتاج إلى نظرة متأنية في كتب الرجال لعلها تُسعفنا بم يُزيل هذا الإشكال.

رُحْنا نُفَتِّش في كتب الجرح والتعديل لرواة الحديث لعلَّنا نجد شيئًا يكشف لنا بعض هذا الغمام حتى تتحقق الرؤية، فوجدنا [1] راويًا يُدْعَى: غسّان بن عبد الحميد بن عبيد بين يسار الكناني **المدني**، روى عن محمد بن إسحاق (ت ١٥٢هـ)،وأبي بكر بن عثمان، وابن المنكدر (ت ١٣٠هـ)، وروى عنه أبو غسّان محمد بن يحيى بن عبد الحميد الكناني (ابن أخيه) (ت ٢٢٠هـ)، ومسلم بن إبراهيم إمام البصرة الحافظ الثقة (ت ٢٢٢هـ). وأغلب الظنّ –إذا ما نظرنا إلى تواريخ الوفاة لهؤلاء الرواة– أنَّ غسّان الكاتب هو غسّان راوي الحديث، لكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك.

قولُ أهلِ الجرح والتعديل في غسَّان بن عبد الحميد الراوي:

ترجم البخاريُّ (ت ٢٥٦هـ) له في "التاريخ الكبير"[2]، لكنه لم يتعرّض له بجرحٍ ولا تعديل، وادّعى بعضُ المتأخرين أنَّ سكوتَ البخاري عن راوٍ من الرواة في كتابه "التاريخ الكبير" يعدُّ توثيقًا له، لاسيما إذا تابعه ابنُ حبّانٍ (ت ٣٥٤هـ) في "الثقات" وهذا ليس بصحيح، بل هو مخالفٌ لما قرّره أهلُ الحديث، من أنَّه لا يلزم من سكوتِ البخاري عن راوٍ من الرواة أن يكون عنده ثقة[3].

---

(١) انظر: لسان الميزان، لابن حجر ت ٨٥٢هـ، ت: عبد الفتاح أبو غُدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ٦/ ٣٠٥، والتاريخ الكبير، للبخاري ت ٢٥٦هـ، ت: هاشم الندوي وآخرون، دائرة المعارف العثمانية، ١٠٧/٧، والثقات لابن حبان ت ٣٥٤هـ، ت: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م، ٩/ ٢، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ت ٣٢٧هـ، ت: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م، ٧/ ٥١.

(٢) التاريخ الكبير، ٧/ ١٠٧

(٣) انظر: تيسير علوم الحديث، عمرو عبد المنعم سليم، دار ابن القيم ودار ابن عفّان، ط٢، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، ص ١٧٨.

وجاء في "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ): «حدثنا عبد الرحمن قال: سألت أبي عنه[١] فقال: شيخٌ مديني نزل البصرة مجهول»[٢]. وأبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧هـ) مشهورٌ عنه التشدّدُ في التوثيق، قال فيه الذهبي (ت٧٤٨هـ): «إذا وثّق أبو حاتم رجلًا فتمسَّكْ بقوله، فإنه لا يوثِّقُ إلا رجلًا صَحِيحَ الحديث، وإذا ليَّن رجلًا، أو قال فيه: لا يُحْتجُّ به فتوقّفْ حتى ترى ما قاله غيرُه فيه، فإنْ وثّقه أحدٌ، فلا تبنِ على تجريح أبي حاتم، فإنّه متعنِّتٌ في الرجال، قد قال في طائفة من رجال "الصحاح": ليس بحجّة، ليس بقويٍّ، أو نحو ذلك»[٣].

وذكره ابن حبّان (ت ٣٥٤هـ) في "الثقات"[٤]، لكن هل مجرد ذكره في "الثقات" يُعَدُّ توثيقًا له لاسيما وقد اشتهر عن ابن حبّان أنه متساهلٌ في التوثيق؟ والتحقيق أنَّ توثيق ابن حبّان على درجات[٥]: الأولى: أن يُصرّح به كأن يقول: «كان متقنًا» أو «مستقيم الحديث» أو نحو ذلك. والثانية: أن يكون الرجل من شيوخه الذين جالسهم وخبرهم. والثالثة: أن يكون من المعروفين بكثرة الحديث بحيث يُعلم أنّ ابن حبّان وقف له على أحاديث كثيرة. والرابعة: أن يظهر من سياق كلامه أنه قد عرف ذلك الرجل معرفة جيّدة. والخامسة: ما دون ذلك.

فالأُولى لا تقلُّ عن توثيق غيره من الأئمة، بل لعلّها أثبتُ من توثيق كثير منهم، والثانية قريبٌ منها، والثالثة مقبولة، والرابعة صالحة، والخامسة لا يُؤمن فيها الخلل. والواضح أن غسّان يدخل في الدرجة الخامسة، التي لا يُؤمن فيها الخلل.

وذكر الذهبيُّ (ت ٧٤٨هـ) في ميزان الاعتدال أنه مجهول[٦]، والذهبي من الأئمة الكبار المعتدلين في أحكامهم في الجرح والتعديل، لكن ينبغي أن نقف مع مصطلح الجهالة نفسه، ما المقصود بهذا المصطلح؟ المقصودُ بالجهالةِ الجهالةُ عند المحدِّثين، وسببُها عندهم: «أنّ

(١) أي: عن غسّان بن عبد الحميد.
(٢) الجرح والتعديل، ٧ / ٥١.
(٣) سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ١٣/ ٢٦٠.
(٤) الثقات، ٢/٩.
(٥) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م، ص ٦٦٩.
(٦)ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت، ٣/ ٣٣٤.

الراوي قد تكثر نعوته فيذكر بغير ما اشتهر به لغرض، وصنّفوا فيه الموضِّح. وقد يكون مقلًّا فلا يكثر الأخذ عنه، وصنّفوا فيه الوُحْدان، أو لا يُسَمَّى اختصارًا، وفيه المبهمات»[(١)].

وقسَّموها إلى قِسْمين[(٢)]: جهالة عين وهي تختصُّ بمن لم يروِ عنه غير واحد، ولم يتعرَّض له أحدٌ من أهل العلم بجرح أو تعديل، وجهالة حال: وهي تختصُّ بمن روى عنه أكثر من واحد، ولم يتعرَّض له أحدٌ من أهل العلم بجرح أو تعديل.

والمحدِّثون إذا أطلقوا لفظ الجهالة إنما أرادوا به الجهالة في رواية الحديث، فقد يكون الرجل معروفًا في فنٍّ آخر لكنه مجهول في رواية الحديث، وللذهبي نفسه قولٌ نفيسٌ يُقعِّد به لمسألة التخصّص، وأنَّ الرجل قد يَبْرع في فنٍّ دون فنٍّ آخر، فيحكم عليه حينئذٍ في فنِّه، نصُّه: «فكم من إمام في فنٍّ مُقَصِّرٌ عن غيره، كسيبويه –مثلًا– إمامٌ في النحو ولا يدري ما الحديث، ووكيعٌ إمامٌ في الحديث لا يعرفُ العربية، وكأبي نُوَاس رأسٌ في الشعر عريٌّ من غيره، وعبد الرحمن بن مهدي إمام في الحديث لا يدري ما الطبُّ قطُّ، وكمحمد بن الحسن رأسٌ في الفقه ولا يدري ما القراءات، وكحفص إمام في القراءة تالفٌ في الحديث»[(٣)].

إنه لنصٌّ قيّم جدًّا، يُقَيِّم الرجل من خلال ما برع فه، وينفي عنه الحرج والعيب لتقصيره في الفنون الأخرى، فالإنسانُ له طاقة، وعمرُه لا يكفي لكلِّ هذه العلوم، وكلُّ فنٍّ يُحكم بمعاييره ومقاييسه لا بمعايير الفنون الأخرى، وإلا فلو أطلقنا أيدي أصحاب فنٍّ يُسلِّطون معايير نقدهم لفنِّهم على الفنون الأخرى لأفسدنا حتى إنْ كنّا نريدُ الإصلاح، فمثلًا إذا طُبِّقت قواعد رواية الحديث على التاريخ والأدب لأسقطنا أجزاء كبيرة منهما، فينبغي حينئذ أن يكون لأصحاب التاريخ والأدب كلمتُهم، فأهلُ مكّة أخبر بشعابها. وإذا قد تبيّن ذلك فغسّان مجهول عند المحدثين بمفهوم الجهالة عند المحدّثين، لكنه بارعٌ في مجال الأدب، مبرّزٌ فيه، معدودٌ من البلغاء.

(١) نزهة النظر شرح نخبة الفكر، ابن حجر(ت ٨٥٢هـ)، خرّج أحاديثه: محمد خليل الطوخي، مكتبة الرحاب، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م، ص ٦٤و٦٥.

(٢) تيسير علوم الحديث، ص ٦٩.

(٣) تذكرة الحفاظ، تصحيح: عبد الرحمن بن يَحْيَى المعَلَّمي، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت، عن طبعة الهند، ٤/ ١٠٣١.

البيئة الثقافية التي عاش فيها غسّان[1]:

تحوّلت إلى الأدب العربي الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكلّ معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية، بحيث تدخَّل جميعُ ذلك في تركيبه وائتلف مع نسيجه، وتولّد منه جديد تلو جديد.

وحدث هذا التحوّل عن طريقين: طريقِ النقل والترجمة، وطريقِ تعرّب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة. وصبّت هذه الثقافات المتعدّدة في نهر الأدب الواسع، وسرعان ما ذابت فيه، ولم يقف الأدب عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التي أتته من الأجانب، فقد انبرى العرب يضعون العلوم اللغوية والشرعية، بل العلوم الطبيعية والكونية.

وكلُّ ذلك كان له أثرٌ بعيد في أدبنا العربي، لا من حيث الألفاظ والمصطلحات الجديدة فحسب، بل أيضًا من حيثُ ذخائرُ الفكر الفلسفي واليوناني والعربي، التي جعلته يعرف صورًا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهدَ له بها، كما جعلته يعرف القياس المنطقي الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعاني، إلى غير ذلك.

ولعلك –إذا ما نظرت في أدب غسّان– واجدٌ كلّ هذا، فأدبُه ينطق بثقافة عصره، ويكشف عما وصل إليه الأدبُ من عمقٍ في التفكير، وروعةٍ في التعبير، وقدرةٍ على استيعاب كلِّ جديد، وصَوْغِه في صورة تتماشى وطبيعته وبيئته وثقافته، وليس هذا عند غسّان وحده وإنما عند كلِّ أقرانه من أمثال: مَسْعدة بن سعد، وولده عمرو، ويوسف بن صبيح، وولده أحمد، وابن المقفّع، وعُمارة بن حمزة، وجعفر بن يحيى وغيرهم.

مصادرُ أدبه:

ذكر النديم –كما تقدّم– أنَّ لغسان ديوانَ رسائل، لكن أكلته ضباعُ الضياع، والذي وجدناه من رسائله اثنتا عشرة رسالة، مفرّقة في جمهرة رسائل العرب، وفي القسم الذي حقّقه ضيف الله الحارثي من المنثور والمنظوم[1].

(١) انظر: العصر العباسي الأوّل، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة العاشرة، وتاريخ الأدب العربي (الأعصر العبّاسية)، عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

والرسائل التي في الجمهرة عزاها أحمد زكي صفوت إلى المنثور والمنظوم أيضًا؛ فما خبرُ هذا الكتاب؟!

المنثور والمنظوم مصنَّف لابن طيفور ت ٢٨٠هـ، وهو أربعة عشر جزءًا[٢]. ولم يَبْقَ منه إلا ثلاثةُ أجزاء: الجزء الحادي عشر، وهو في بلاغات النساء، وقد نُشِر عدَّة مرات[٣]. والجزء الثاني عشر، وهو قسمان: القسم الأول في القصائد المفردات التي لا مثلَ لها، وقد نُشِر[٤]، والقسم الثاني في الرسائل، وذكر فيه ابن طيفور الرسائل المفردات[٥] اللواتي لا نظير لها، والتي هي أركان البلاغة التي استقى منها البلغاء، هكذا زعم. ثم ذكر فصولًا منتخبة من الرسائل المختارة في كلِّ فنٍّ، ومعظمُها مقطعاتٌ غيرُ منسوبةٍ لأحدٍ بعينه، وهذا القسم (القسم الثاني من الجزء الثاني عشر) منشور كلُّه مفرّقًا في كتاب جمهرة رسائل العرب لزكي صفوت.

أمّا الجزء الثالث عشر فهو للرسائل فقط، وهو عبارة عن نماذج للكتابة الرفيعة وأمثلة لها في موضوعات شتَّى، نَشَرَ المرحوم أحمد زكي في جمهرته ما هو منسوبٌ إلى أصحابه منها وأعرض عن الباقي. وأراد ضيف الله الحارثي أن يحقق هذا الجزء تحقيقًا علميًا من غير أن ينتقي المنسوب ويترك غيره، فوصل إلى باب التعزية.

موضوعاتُ رسائله:

مجموع رسائل غسّان التي وصلت إلينا اثنتا عشرة رسالة، تتراوح بين الطول والقصر والتوسّط، وأطولُها رسالة العتاب التي هي موضوع بحثنا، ومن حيث الموضوعاتُ كان للتعزية القِدْحُ المعَلَّى؛ حيث بلغ عددُ رسائلها سبعَ رسائل، ويبدو أنه كان يجيد هذا الفن إجادة تامّة، ويُتقنه إلى حدٍّ بعيد. أمّا ما تبقّى من رسائله: فواحدةٌ في العتاب، وواحدةٌ في التهنئة بزواج، وواحدةٌ في المودة، وتحميدٌ في فتح وتحميدٌ في مطر.

---

(١) المنثور والمنظوم، القسم الأوّل من الجزء الثالث عشر، تحقيق ودراسة: ضيف الله سعد الحارثي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) الفهرست، ص ٢٠٩.

(٣) منها نشرة أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأوّل، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.

(٤) نشره الدكتور: محسن غيّاض، تراث عويدات، (بيروت — باريس)، ١٩٧٧م.

(٥) هذه الرسائل لابن المقفّع، وعمارة بن حمزة، وأحمد بن يوسف، ويحيى بن زياد الحارثي، وغسّان بن عبد الحميد، وعبد الحميد الكاتب، وأبي الربيع محمد بن الليث.

الدراسات السابقة:

لم نظفر بدراسة مستقلة عن أدب غسّان بن عبد الحميد بصفة عامة، ولا عن رسالته في العتاب بصفة خاصة، وغايةُ ما هنالك أنَّ الدكتور شوقي ضيف ذَكَره في كتابه: العصر العباسي الأوّل، حين تحدّث عن الكتّاب لعصر المنصور، وذكره مرّة أخرى في سياق حديثه عن الرسائل الإخوانية(١)، وأتى له بقطعتين من رسالته في العتاب وعلّق عليهما تعليقًا خفيفًا يتناسب مع طبيعة كتابه التأريخية(٢). وهذا ما دفعني إلى دراسة هذه الرسالة، أَضِفْ إلى ذلك ثناء ابن طيفور عليها بأنها من الرسائل المفردات التي لا غِنًى لأيّ بليغٍ عنها.

البنية المعنوية للرسالة:

تكلَّم غسان في البداية عن أطوار الخَلْقِ وأطوار الخُلُق، يشير إلى قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا**﴾ (سورة نوح: ١٤)، ثم تحدَّث عن ما شرعه الله عز وجل ليُصلح أحوال العباد، ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (سورة الملك: ١٤)، فذكر الحقوق والواجبات بصفة عامة، وعرَّج على حقِّ الأخوّة بصفة خاصة، يقول: «أما بعد: فإنَّ الله جعل العباد أطوارًا في أخلاقهم، كما جعلهم أطوارًا في صُوَرهم، وجعل بينهم أمورًا يتآلفُون عليها، ويُعْمِلُون أحْلامهم فيها منْ حُرَم يتجاملون بها، وحقوقٍ يتنازعونها، ومودَّةٍ يتعاطونها، وأخُوَّةٍ يتداولونها، تُرْعى بوفاء ...»(٣).

وأخذ يذكر نعم الله على عبيده، وما يتبع هذا من رعايةٍ لهذه النعم، والسعي دائمًا لما يُصلحها ويُبقيها، والبعد عما يُنقصها ويُذهبها، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان. ثم شرع يُحدّث بنعم الله عليه، في الماضي والحاضر والشباب والكهولة والسرّ والعلن، ومن أجلِّ هذه النعم وأشرفها نعمةُ الأُخُوَّة، يقول: « ولم أزَلْ أتعَرَّفُ مِن نِعَم الله عز وجل عليَّ، قديمًا وحديثًا، ويافِعًا ومُسنًّا، فيما أبلاني وأظهَرَ مني، وأثبتَ معرفتَه عند الناس، ما أصبحتُ أَرَى استصلاحهُ والتوقّيَ لتغيُّره حقًّا عَلَيَّ واجبًا»(٤).

وفي سياق ذكر هذه النعمة العظيمة شرع يذكر ما كان بينه وبين إخوانه من صلاتٍ ومودّاتٍ، إخوانه الذين اختاروه واختارهم، ووقع رأيُهم عليه ووقع رأيُه عليهم، وارتضَوْه لأنفسهم

(١) العصر العباسي الأوّل، ص ٤٧١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠٣.
(٣) جمهرة الرسائل، ١٠١/٣.
(٤) المصدر نفسه، ١٠٢/٣.

وارتضاهم لنفسه؛ ومن ثمَّ وجب على الجميع المصافاة والصلة والوفاء؛ فهل ينكشف هو عن خيانةٍ وغدرٍ وقطيعة وفجيعة؟! وإنْ كان هذا الفعل المشين لا يُتصوّر مع إخوانه بصفة عامّة، فكيف بصاحب الفضل والجميل منهم، لا شكَّ أن احتمال وقوعه يكون أبعد وأصعب.

و قال غسّان: «فما كنتُ لأقطعَ خاصَّتي ممن يرغب في عامتي، ولا لأضيّعَ الكثيرَ ممن لا يضيع اليسيرَ، ولا ألْقَى أخًا شاهدًا، بغير ما أكون عليه غائبًا، فأكونَ قد لقيتُه بِدَلٍّ، وغِبْتُ عنه بقَذَرٍ، ويكون قد استودَعَني شيئًا حفِظتُ ضِدَّه وسترتُ سواه، بل أنا لأخي حين يَغِيبُ عني وأَرعاه، أحفظُ منّي حين يشاهِدُني فيعايِنُ ما يكونُ مني، ولم يكن لِيَمُتَّ بالأسباب إليَّ أهلُ الفضل والأحساب، لا يدعوني إليهم إلا الرغبةُ فيهم، والتزيُّنُ بأحسابهم، والاستمدادُ بمُدَدهم، حتى إذا استحكمتْ حُرْمتُهم وتظاهرتْ، ووجبَتْ عظُمتْ وصرتُ إمّا محافظًا يَزِينُه حِفاظُه، وإما مضيّعًا يَشِينُهُ تضييعُهُ عمِلتُ في ذلك بما يقطَع ما أردتُ صلتَه، ويَشِينُ ما أردتُ زَيْنَه، ويصِيرُ عليّ ولا يَصِير لي»[1] . استخدم الكاتب أسلوب المقارنات والمفارقات ليبيّن طهارة ثوبه ممّا رُميَ به، فهذا لا يمكن أن يحدث ولا يتصوّره عقل؛ فكيف يقطع خاصّته ممّن يرغب في عامّته؟!، وكيف يضيع الكثير ممّن لا يضيع اليسير؟، وأنّي يخالف ظاهره باطنه تُجاه إخوانه؟!، وهل بعد ما مَتَّ أهلُ الفضل والإحسان إليه بالأسباب والعلائق واستحكمت حُرْمتهم وعظمت يعمل هو بما يقطع ذلك؟!

وبعد هذه المقدّمة الطويلة اللطيفة، يأتي ذكرُ الشكاية والمظلمة، لكن بأسلوب عَذْبٍ رقراق، يقطرُ أدبًا وعقلًا وحكمة، يُحدثنا الكاتب عن هذه الوشاية التي عكّرت بحر المودة، وكان قبل ذلك صَفْوًا، وأضعفت حبل الأخوّة، وكان قبل ذلك متينًا، وأظلمت طريق الوفاء وكان قبل ذلك منيرًا. وقد أسِف جدًّا لأنّ هذه الرَّمْية وجدت مساغًا في قلب صاحبه، مع أنه لم يكن لأشباهها معروفًا، كما أنّ صاحبه لم يكن بقبولها خليقًا.

عَجِبَ غسّان كيف وجدت هذه الكذبة مساغًا عند صاحبه، يقول: « وإنه بَلَغَنِي أن غاشًّا ظالما أتاك بأمرٍ، لم أكن له أهلًا، ولم تكن بقَبوله خَلِيقًا، لأني لم أكن لأشباهِ معروفًا، ولم أكن على استماع مِثله مَخُوفًا، فوجد فيك مَساغًا، وعندك مستَقَرًّا، وكنتُ أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حِصن حَصينٍ، ومحلّ مكين، لا يناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويلُ المفسدين»[2].

(١) جمهرة الرسائل، ٣/١٠٢و١٠٣.
(٢) جمهرة الرسائل، ٣/١٠٤.

نعم، كانت هناك أمور كثيرة وحواجز منيعة لصدِّ هذه الكذبة، أعظمها أخلاق صاحبه التي تسمو عن مثل هذا، وهناك أيضًا سدٌّ شامخ لا تقوى عليه سيول الكذب ولا فيضانات الافتراء، ألا وهو طولُ العشرة بينهما، مع تقلّب الأحوال عليها، فلم تتغير الحال في علوٍّ لصاحبه ولا نزول، كما حدث لأناس كثيرين، بل كان الحفاظ على المودة والإخاء رايةً مرفوعة وشعارًا مدويًّا مهما تغيّرت الأحوال.

ولا يخلو زمانٌ من هؤلاء الذين يدورون مع المصالح حيث دارت، مذهبُهم مصلحتُهم، وموقعُهم حيث تكون، إن علا شخصٌ تقرّبوا إليه حتى ينالوا خيره وعطاءه، وإنْ نبا به الزمان كانوا أوّل الطاعنين فيه والآكلين لعِرْضه، لكن الكاتب –كما زعم– ليس من هؤلاء؛ فهو لا يخرج عن فلك الوفاء، مهما علا إخوانُه أو نزلوا.

كان الكاتب يرجو من صاحبه ألا يصدِّق مثل هذه الوشايات، لاسيّما وأنّ مَنْ نَقَلَها مِنْ أهل الكذب والزور؛ فهم أولى بالتهمة منه، كان يرجو منه أن يَرُدَّ عن عرض أخيه، فإن لم يفعل كان ينبغي له أن يقف متأنّيًا مدقّقًا في الأمر ومتثبّتًا، فإن وجده حقًّا –وليس كذلك– كانت القطيعة –ولاينبغي أن تكون– على بيّنة، وإن وجده باطلًا –وهو الواقع– استخرج أخاه من هذه التهمة الباطلة.

لقد عظُم على نفس الكاتب جدًا أن يُتّهم بأنه يستخفُّ بحقِّ صاحبه وهو بريء من هذه التهمة، وقد اضطره ذلك إلى معاذير لم يُضطر إليها من قبل، لكنّه يَضِنُّ بصاحبه، وبما كان بينهما من مودة وإخاء، ولا يريد أن يذهب ذلك باطلًا، أو يصير ضائعًا، حتى وإن حدثت إساءة من صاحبه، فإنه يحتمل ذلك لأجل الحفاظ على هذه المودّة، وإذ قد كان ذلك فهل يهتك حرمة صاحبه من غير إساءة؟!، هل يهجوه؟!، هذا ما لا يكون أبدًا؛ لأنه في هذه الحالة يهجو نفسه التي اختارت صاحبها ولازمته هذه المدّة الطويلة، والمرء على دين خليله، ففي اتهامه لصاحبه وهجائه له اتهامٌ لنفسه أولًا وهجاءٌ لها، يقول: «فما أعظمَ عندي أن أُنْزَل منزلةَ استخفافٍ بحقك، أو تُهَمَةٍ عندك على براءةٍ فيما بيني وبينك! فإنه إن تكن البراءة أخرجتني من التقصير عندك في الظن بك، فغفر الله لك، لقد جَرَى عَلَى لسانك ما لم يَجْرِ عَلَى لسان أخ قبلك، واضطررْتَني في إخائك إلى معاذيرَ لم يضطرَّني إليها أحدٌ سِواك، ولو لم أكن بفضلك عارفًا، وعَلَى نصيبي منك شَحِيحًا، لَشَححْتُ على ما سلف مني فيما بيني وبينك أن يَذْهَب باطلًا، ويصيرَ ضائعًا، ويتحول حَسَنُه قبيحًا، ومعروفه مُنكرًا»[1].

(١) جمهرة الرسائل، ٣/١٠٥.

والكاتب لا يقول الشعر في جميل الأمور من ثناءٍ على صديق ومدحٍ له وغير ذلك، فهل يقوله في الظلم والعدوان والفجعة للإخوان؟، ويجمع بذلك نقيصة الشعر -في زعمه- ونقيصة الغدر؟، هذا ما لا يسوغ لدى عاقل. إنه لا يهجو بشعره أهل السَّفَه والشِّين، وهم مستحقّون لذلك، ومن ثَمَّ فلا يُتصوّر أبدًا أن يوجهه وجهةَ صديقه.

وغسّان يصبر للوفاء حتى إنْ حدث من أصحابه البلايا، يضنُّ بهم وبصحبتهم، فكيف يخرج من الوفاء بغير اضطرار إلى غيره؟!، فهلّا رغب صاحبُه به عن هذا! وفي نهاية عتابه يخبره أنه لا يزال على العهد والوفاء معه، وحُسْن الظنّ به، والتماس العذر له، والنصح له في السرِّ والعلن، والسعي في بقاء المودة، ويرجوه أن يراجع موقفه وقطيعته، وختم بالسلام، سلام من الآفات والمكروهات، سلام من إثم قطيعة الإخوان، سلام من سوء الظنّ والرِّيبة، سلام هو مسك الختام.

الخصائص الكتابية:

لا يفرّق بعض النقاد بين النصّ الشفوي والنصّ المكتوب؛ فمثلًا أبو هلال العسكري لا يجد فرقًا بين خُطَب العرب ورسائلها، يقول: «واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلامٌ لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تُشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يُشافَه بها، والرسالة يُكتب بها، والرسالة تُجعل خطبة، والخطبة تُجعل رسالة في أيسر كُلفة»[(١)].

كذا قال، لكن لا يُسلَّم له هذا، فثمَّة فروقٌ بين الأسلوب الشفوي والأسلوب الكتابي[(٢)]؛ لأنَّ الموقف الإيصالي القائم على القراءة يختلف عن نظيره القائم على السماع.ومما

(١) كتاب الصناعتين، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٥٤.

(٢) انظر: الشفاهية والكتابية، والترج أونج، ترجمة: د. حسن البنا عز الدين، ومراجعة: د. محمد عصفور، عالم المعرفة، فبراير ١٩٩٤م، ونشر الصحابة أغراضه وخصائصه، د. محمد شمس عُقاب، دار الأمل، ط١، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م، ص ٤٦٨ وما بعدها، والخصومة بين الوعي الشفاهي والوعي الكتابي، مقالة لمحمد علي البربري على الإنترنت، مجلة الجسرة الثقافية، ٢٥ يناير ٢٠١٠م.

يتميز به الأسلوب الكتابي: توليد الجمل، وطولها، والترتيب المنطقي، وطول المقابلة، والعمق في الفكر، وكثرة الترادف. ولعلّك واجدٌ هذا كله في رسالة غسّان.

توليد الجمل ونموّها:

إذا أنعمت النظر في رسالة العتاب لغسّان تجده في أحيان كثيرة يضع جملة أُسًّا، ثم يفرّع منها أو يبني عليها معاني أخرى، فالقارئ معه لا يستطيع أن يتركه حتى يُتم المعنى الذي بدأه.

ومن ذلك قوله: «ومودة يتعاطونها، وأخوّة يتداولونها، تُرعى بوفاء، وتُؤدّى بأمانة، وتُضيّع بتقصير، وتُنتقص بخيانة، ليس من أُدّيت إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدِّي لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه، وليس من ضُيِّعت منه بأشقى ممّن ضيّعها فيما يُدْخل من التقصير عليه»(١).

ولعلّ الخطاطة الآتية توضح الأمر أكثر:

مودة يتعاطونها، وأخوة يتداولونها

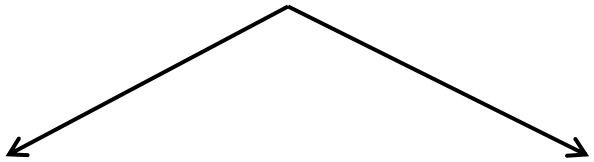

تُرْعَى بوفاء وتؤدَّى بأمانة

ليس مَنْ أُدّيتْ إليه فيما يحفظ بأسعد من المؤدّي لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه

وتضيّع بتقصير، وتنتقص بخيانة

وليس مَنْ ضُيِّعت منه بأشقى ممّن ضيّعها فيما يُدْخل من من التقصير عليه

وقوله أيضًا:

«فإنه من أخطأه الوفاء من أخيه، فإنما يدخل عليه تقصيرُ غيره، ومن ضيّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النقص في خاصة نفسه، والمرء يجد من أخيه إذا خانه بدلًا، ولا يجدُ من نفسه إذا قصّرت به متحوّلًا، فليس نقصٌ يُستبدل به كنقص لا يستطيع مزايلته»(٢).

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠١.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠١.

ونوضّح ذلك بهذه الخطاطة:

فإنّه من أخطأه الوفاء من أخيه ومن ضيّع الوفاء لإخوانه

فإنما يدخل عليه تقصير غيره فقد أدخل النقص في خاصة نفسه

والمرء يجد من أخيه إذا خانه بدلًا ولا يجدُ عن نفسه إذا قصّرت به متحولًا

فليس نقصٌ يُستبدل به كنقص لا يستطيع مزايلته

وقال: «لقد عرفت أنَّ على الأخ من ردّ الكذب عن أخيه ما حسّن الغيب له، فإذا لم تكن لذلك رادًّا مكذِّبًا، فهلّا كنت فيه واقفًا متأمّلًا حتى تكشفه ويتبيّن لك حقُّه من باطله!، فإنْ وجدته حقًّا أتيتَ ما أتيتَ على بينة لك فيها حجة، وإن وجدته باطلًا كان أن تستخرج أخاك من تهمة، خيرًا من أن تقيم له على سخطة ولم يكن منه إساءة»(١).

لقد عرفت أن على الأخ من ردّ الكذب عن أخيه ما حسّن الغيب له

فإن لم تكن لذلك رادًّا مكذبًا فهلّا كنت فيه واقفًا متبيِّنا

حتى تكشفه ويتبيّن لك **حقُّه** من **باطله**

فإن وجدته حقًّا أتيت ما أتيت على بينة لك فيها حجة

وإن وجدته باطلًا كان أن تستخرج أخاك من تهمة خيرًا من أن تقيم

له على سخطة ولم يكن منه إساءة.

التسلسل المنطقي:

الكاتب في رسالته مرتّب جدًّا، أعدّ خُطّتها إعدادًا جيّدًا، يعرف كيف يبدأ وكيف يتخلّص ومتى وكيف يُنهي. تنتظم معاني رسالته انتظامًا عجيبًا كحبّات العِقْد؛ بدأ بالحديث عن أطوار الخَلْق وأطوار الخُلُق وما يستتبع ذلك من الحقوق والواجبات التي ينصلح بها أحوال الخَلْق، ثم تعرّض لحقّ من أعظم هذه الحقوق وهو حقُّ الإخوة.

ثم دخل إلى الحديث عن النعم بصفة عامة، والأُخوّة حقُّ عظيم ونعمة جليلة، ومن الحديث عن النعم على الخَلْق إلى الحديث عن النعم عليه، والحديث عن نعمة الإخوة عنده

(١) نفسه، ٣/ ١٠٤.

بصفة خاصة، ثمَّ بثّ شكواه المتعلّقة بهذه النعمة، وأخذ يردُّ عن نفسه التهمة بكلتا يديه، تلك التهمة التي عكّرت صَفْو هذه النعمة العظيمة.

وبالنظر إلى هذه الخطاطة يتضح ما قلتُ أكثر:

أطوار الخَلْق وأطوار الخُلُق

↓

الحقوق والواجبات

↓

حق الأُخوّة

↓

النعم على الناس

↓

النعم عليه

↓

نعمة الأخوة

↓

الشكوى المتعلّقة بهذه النعمة

↓

دفاعه عن نفسه ليحافظ على هذه النعمة

تلاؤمُ العمل الأدبي والتحامُ أجزائه وترابطُ صوره وتسلسلُ فِكَرِه أمرٌ مهمٌ، وقد أشار القدماء إلى هذا، وإنْ لم يُفصّلوا القول فيه، يقول ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) حاثًّا الشاعر أن تكون قصيدتُه متلاحمةً ومتسلسلةً كالرسالة: «ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم، وتصرّفهم في مكاتباتهم، فإنَّ للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أنْ يصل كلامه على تصرّفه في فنونه صلة لطيفة فيتخلّص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى ... بألطف تخلّص وأحسن حكاية بلا انفصالٍ للمعنى الثاني عمّا قبله، بل يكون متصلًا به وممتزجًا معه»(١).

(١) عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص ١٢.

طولُ الجُمَل:

الهدف المنشود من النصِّ الشفاهي أو النصّ الكتابي هو التأثير في عاطفة السامع أو القارئ؛ ولذا تختلف الآليات التي يستخدمها الكاتب عن التي يستخدمها الخطيب أو المتكلّم، وطريقة نظم الكلمات وترتيبها عند الاثنين ليست واحدة كذلك؛ والسبب في هذا مراعاة طبيعة السامع أو القارئ، فبينما يجنح الخطيب إلى الجمل القصيرة والاستغناء عن أدوات الربط والإكثار من أدوات التنبيه،والإكثار من التكرار، سنرى الكاتب يُرَوِّي في كتابته، ويُطيل جُمَلَه، فعنده فرصة للتأنق والحذف والزيادة، كما عند القارئ أيضًا فرصة أخرى وأكثر للقراءة إذا لم يفهم من المرة الأولى، فلا مشكلة عند الكاتب حينئذ أن يكثر من المتعلّقات، من مثل: المفاعيل الخمسة، والحال، والتمييز، والمستثنى، والجار والمجرور، والظرف، وغير ذلك، ولا غضاضة عنده أن يُبْعد المسند إليه عن المسند، وأن يعمق في فكره، وأن يسلسل أفكاره تسلسلًا عجيبًا، حتى إذا ما ضاعت من القارئ حلْقة من هذه السلسلة لم يستطع أن يَلُمَّ شَمْلَها[(١)].

ولعلّك واجدٌ أكثر ما ذكرت لك إنْ لم يكن كلّه بنظرة واحدة متأنية في رسالة غسّان في العتاب.

يقول غسّان: « حتى **إذا استحكمتْ** حُرْمتُهم وتظاهرتْ، ووجبَتْ عظُمتْ وصرتُ إمّا محافظًا يَزِينُه حِفاظُه، وإما مضيّعًا يَشِينُهُ تضييعُهُ، **عَمِلتُ** في ذلك بما يقطَع ما أردتُ صلتَه، ويَشِينُ ما أردتُ زَيْنَه، ويصِيرُ عليّ ولا يَصِير لي»[(٢)].

فانظر كيف ابتعد جوابُ الشرط عن فعله، وفصل بينهما فواصلُ كثيرة.

وقال في موضع آخر: «و**كنتَ** إذ حذّرت أخاك من أهل الدناءة **حقيقًا** أن تحذرهم في إخوانك الذين وقع إحسانُك عليهم»[(٣)]، وقد أبعد هنا خبر كان عن اسمها.

---

(١) انظر: من أسرار اللغة، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٣، ١٩٦٦م، الفصل الرابع: الجملة العربية أجزاؤها ونظامها، وكتاب اللغة، فندريس، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمّد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م، الجزء الثاني: النحو، الفصل الرابع: اللغة الانفعالية.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٤.

وقال في موضع ثالث: «وايم الله إنّي **لأرى** الشعر في جميل الأمور، وحسن الثناء على الصديق **قبيحًا**، فكيف إذا كان في الظلم والعدوان، والفجعة للإخوان، فاجتمعت نقيصة الشعر، ونقيصة الغدر»(١).

بناءُ الرسالة:

اهتم النقاد بالحديث عن بناء الرسالة؛ فهو جزء أصيلٌ في دَرْسها من الناحية الفنية، والوقوف معه يساهم في كشف مرامي الرسالة، كما يساعد في فهم شخصية الكاتب ومدى براعته وإحكامه لفنّه(٢).

والرسالة تتكون من مقدّمة وموضوع وخاتمة، ولكلّ عنصر من هذه العناصر معايير جودة وسّع النقاد دائرة القول فيها.

والمقدّمة في صورتها الكاملة تتكون من سبعة عناصر، هي: البسملة، والعنوان، والدعاء، والسلام، والتحميد، والتصلية، والبعدية. ويقصد بالبعدية الصيغة التي تستخدم للانتقال من المقدّمة إلى الغرض، وهي: "أما بعد" أو "بعد". ولا يشترط أن تُلتزم هذه العناصر في كلِّ مقدمة رسالة، وإنما قد يغيب بعضُها أو ربّما تغيب كلُّها؛ وذلك حسب المقام.

وإذا ما رجعنا إلى رسالة غسّان في العتاب لم نجد فيها من عناصر المقدّمة إلا البعدية، ولذلك لا نعرف من هذا المعاتَب، ربما أسقط ابنُ طيفور المقدّمة، وربما لم يذكرها غسّان، أو ربّما لم يذكر بعضها، على كلِّ حالٍ لم نرَ شيئًا منها.

سرنا فترة في سبيل التخمين حتى نعرف صاحب غسان، وحاولنا الاهتداء بالإشارات والعلامات الموضوعة على رأس هذه السبيل؛ فالألفاظ في غاية الفخامة لا تصلح لشخص عاديّ، والصاحب ذو سلطان وإمرة، وغسّان كتب الرسالة –كما يبدو من ألفاظها– وهو

(١) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٦.

(٢) انظر: إحكام صنعة الكلام، الكُلاعي (من أعلام القرن السادس)، ت: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٦م، ص ٥١ – ٨٩، والرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، د.صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، الباب الرابع، ونقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي، نبيل خالد أبو رباح، إشراف: د. محمد زغلول سلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٢٨٥ – ٢٩٢.

مُسِنٌّ، كلُّ تلك الإشارات تُشير إلى أن المعاتَب هو جعفر بن سليمان الوالي الأمير الذي كان يكتب له غسّان.

وتأكّد هذا الظن بكلام لأبي حيان التوحيدي في الصداقة والصديق نصُّه: «وكتب غسّان بن عبد الحميد المدني إلى جعفر بن سليمان الهاشمي يعاتبه»(١). ثم ساق أبو حيان أجزاء من رسالة العتاب.

ومن اللافت للنظر براعة الاستهلال(٢) في مطلع الرسالة، فأوّل الرسالة يشفُّ عن مضمونها، وأن الرسالة لها تعلّق بالمودة والأخوة التي بين الناس، يقول غسّان: «أمّا بعد: فإن الله جعل العباد أطوارًا في أخلاقهم، كما جعلهم أطوارًا في صورهم، وجعل بينهم أمورًا يتآلفون عليها، ويعملون أحلامهم فيها من حرم يتجاملون بها، ومودة يتعاطونها، وأخوة يتداولونها، ترعى بوفاء، وتؤدّى بأمانة، وتضيّع بتقصير، وتنتقص بخيانة ...»(٣).

ومن اللافت أيضًا أن غسان بن عبد الحميد لم يدخل في عتابه مباشرة، وإنما مهّد بتمهيد رقيق، تحدّث فيه عن نعم الله على الناس، وعليه بصفة خاصة، ودخل إلى نعمة الإخوة، وبيّن جميل عشرته لإخوانه، وأخذ هذا ما يقرب من ثلاث صفحات، وهو ما يقترب من نصف الرسالة، ولعلّ ذلك كلّه كان من أجل استمالة قلب صاحبه وتهيئته للحديث في موضوعه، وكأنّي بغسان يخاف من ألا يقرأ صاحبُه الكتاب لو عرض المشكلة ابتداء، فحرص على استمالة قلبه وترقيقه.

ويُشير هذا التمهيد الطويل إلى قوة الفجوة بين غسّان وصاحبه، ولعلّك واجدٌ هذا في قول غسان: «فما أعظم عندي أنْ أنزل منزلة استخفاف بحقّك، أو تهمة عندك على براءة فيما بيني وبينك! فإنه إنْ تكن البراءة أخرجتني من التقصير عندك في الظنّ بك، فغفر الله لك، لقد

(١) الصداقة والصديق، ت: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٤١٩هـ، ص ١٤٩.
(٢) انظر في براعة الاستهلال؛ تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري ت ٦٥٤هـ، ت: دكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، ص ١٦٨ وما بعدها، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ت ٨٣٧هـ، ت: دكتورة كوكب دياب، دار صادر، ط٢، ٢٠٠٥م، ١/ ٣٠٧ وما بعدها.
(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠١.

جَرَى على لسانك ما لم يجر على لسان أخٍ قبلك، واضطررتني في إخائك إلى معاذير لم يضطرني إليها أحدٌ سواك»[١].

وقال غسّان في نهاية رسالته: «واعلم أنّا لم نَخُلْ عن حبس الرأي في حفظ حقّك ساعةً من ليل ولا نهار، في سرٍّ ولا علانية، ولا غيبة ولا شهادة، ولا نأتي أمرًا ينقص من حرمتنا، والسلام»[٢]. إنّه التشبّث بالوصل على الرغم من قطيعة صاحبه، تِلْكُمُ القطيعة التي أشعل نارَها وشايةُ الواشين، وما من سبيل لإطفائها إلا سلام المحبّين؛ ولذا أحبّ أن يكون السلام هو الختام.

النفي بلام الجحود:

الناظر في رسالة غسّان في العتاب يلاحظ شيوع النفي فيها، من مثل قوله: «وإنه بلغني أن غاشًا ظالما أتاك بأمر، لم أكن له أهلًا، ولم تكن بقبوله خليقًا، لأنّي لم أكن لأشباهه معروفًا، ولم أكن على استماع مثله مخوفًا، فوجد فيك مساغًا وعندك مستقرًّا، وكنتُ أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حصن حصين، ومحلٍّ مكين، لا يناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويل المفسدين»[٣]. ولا غضاضة في ذلك، فالرسالة سِيقت لتبرئة جانب غسان مما نُسب إليه زورًا وبهتانًا –على حدِّ قوله–، ولا عجبَ حينئذ من كثرة نفيه للتهمة، وأنه لم يكن لها أهلًا ... إلى غير ذلك.

لكنّ الجديرَ بالعناية والتأمّل هو استعانته كثيرًا بالنفي بلام الجحود، ففي **تسعة مواضع** من رسالته يحضر هذا النوع من النفي. ولعلّه وُفِّق كثيرًا في هذا؛ فأسلوب لام الجحود أبلغ من غيره، فـ (ما كان زيدٌ ليقومَ) أبلغ من: (ما كان زيد يقوم)؛ لأنّ الأوّل نفي للتهيئة والإرادة للقيام، وهو أبلغ من نفي الفعل؛ لأنَّ نفي الفعل لا يستلزم نفي إرادته[٤].

ونحن إذا ما أردنا أن نعرف هذا الأسلوب بصورة أفضل بحاجة إلى الوقوف مع كلام أهل صنعة النحو؛ فأهل مكة أخبرُ بشعابها.

---

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٧.

(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٤.

(٤) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القسم الأول، الجزء الثاني، ص ٤٥٦، ومعاني النحو، الدكتور فاضل حسن السامرائي، دار الفكر، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ١/ ٢٢٥.

جاء في الكتاب: «واعلم أنّ اللام قد تجيء في موضع لا يجوز فيه الإظهار وذلك: ما كان ليفعل، فصارت أن ههنا بمنزلة الفعل في قولك: إيّاك وزيدًا، وكأنّك إذا مثَّلْتَ قلت: ما كان زيدٌ لأن يَفْعل، ما كان زيدٌ لهذا الفعل، فهذا بمنزلته، ودخل فيه معنى نفي كان سيفعل. فإذا قلت هذا قُلْتَ: ما كان ليفعل، كما كان لن يفعل نفيًا لسيفعل، وصارت بدلًا من اللفظ بأن كما كانت ألف الاستفهام بدلًا من واو القسم في قولك: آلله لتفعلن»(١).

وأوضح ابن هشام في المغني(٢) أنَّ لام الجحود تفيد توكيد النفي، وهي الداخلة في اللفظ على الفعل مسبوقة بما كان أو بلم يكن، ووجّه التوكيدَ فيها عند الكوفيين أنّ أَصْلَ "ما كان ليفعل": ما كان يَفْعل، ثم أدخلت اللام زيادة لتقوية النفي، كما أدخلت الباء في "ما زيدٌ بقائم" لذلك، فعندهم أنها حرف زائد مؤَكِّد غير جار، ولكنه ناصب، ولو كان جارًّا لم يتعلّق عندهم بشيء لزيادته، فكيف به وهو غير جارّ؟. أمّا عند البصريين فلأنّ الأصل: ما كان قاصدًا للفعل، ونفي القصد أبلغ من نفي الفعل.

والرضي في شرحه على الكافية يرى أنَّ توكيد النفي في هذا الأسلوب يتأتّى من جهة المناسبة، يقول: «وكأنَّ هذه اللام في الأصل هي التي في نحو قولهم: أنت لهذه اللحظة، أي مناسب لها وهي تليق بك، فمعنى ما كنتُ لأفعل كذا: ما كنتُ مناسبًا لفعله ولا يليق بي ذلك، ولا شكَّ أنّ هذا في معنى التأكيد»(٣).

إذن اتفقت كلمة النحاة على أنَّ هذا الأسلوب يفيد توكيد النفي، لكن اختلف التوجيه، فعند البصريين يتأتّى التوكيد من ناحية نفي الإرادة وهو أقوى من نفي الفعل، ويرى الكوفيون أن التوكيد حدث لزيادة اللام، وهي عندهم ناصبة وليست جارّة، والرَّضي يرى أن التوكيد من ناحية المناسبة، فما كنت لأفعل كذا معناها: ما كنت مناسبًا لفعله.

ولعلّنا بعد هذا العرض لأقوال النحاة نقف على السرِّ وراء إكثار غسّان من هذا الأسلوب في رسالته؛ فهو لم يُرد مجرّد النفي، وإنما أراد توكيد النفي، لم يرد مجرّد نفي الفعل، وإنما

(١) الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، د. ت، ٣/ ٧.
(٢) مغني اللبيب، تحقيق وشرح عبد اللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ٣/ ١٦٤ وما بعدها.
(٣) شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق، يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م، ٤/ ٦٢.

أراد نفي التهيئة والإرادة، وإذا انتفت الإرادة فالفعل من باب أولى، كما أراد غسان نفي المناسبة بين أخلاقه وهذا الفعل.

واستمع إليه وهو يحترق غمًّا يقول: «فما كنت لأقطع خاصتي ممّن يرغب في عامتي، ولا لأضيع الكثير ممّن لا يُضَيّع اليسير، ولا ألقى أخًا شاهدًا بغير ما أكون عليه غائبًا»(١).

إنه يدفع المناسبة بين هذه الأخلاق المشينة والأفعال الرديئة وبين أخلاقه المرضيّة بكلتا يديه، يردُّ هذا الصائل بِكلِّ ما يملك من أدوات دفاع في الغة. إنه تناقض عجيب لا يرضاه؛ كيف يرضى مقابلة الإحسان بالإساءة، والوصل بالقطيعة.

وتراه في موضع آخر يذوب من حرارة ألم الاتهام كما يذوب الثلج من حرارة الشمس، يقول: «ما كنتُ لأعادي مَن غَشّك، وأعتتب بالغش لك! ولا لأوالي من ناصحك وأقطع نصيحتي لك! ولا لأعرِّض نفسي فيك وأستخفّ بعد ذلك بحقّك! فأكون عونًا لمن عاديته فيك، مفارقًا لمن واليت فيما واليته عليه، معرِّضًا في أمر لأسلم له ما قِبَلي، لقد -بحمد الله- خبرني الإخوان في طول هذا الزمان، فبغير هذا عرفوني، وعلى غيره احتملوني، فما كنت لأعايشك بغير ما عايشتهم، ولا لأعملَ في إخائك بغير ما عملت في إخائهم، وأنت أعظمُهم منزلة، وأقدمُهم مودة، وأكملُهم ثقة، وأزينُهم أخوة، وأجملُهم محافظة»(٢).

لا ينفي غسان عن نفسه هذه الأمور التي لا تليق، وإنما ينفي مجرّد إرادتها أو الهمّ بها، فهو ليس مناسبًا لها، وهي ليست مناسبة له، فهو أبدًا لا يهمُّ بغشٍ في معاملة صديقه، ولا يفكّر في قطْع نصيحته عنه، كما أنه من المحال أن يخطر بخَلَده أن يستخفّ بحق صاحبه، وإذا كان مجرّد أن يخطر هذا بباله محالًا فهل يمكن أن يفعله؟

ولقد طالت معايشةُ غسّان لإخوانه، فما عرفوه إلا صادقًا وفيًا محبًّا مخلصًا، هذه حاله مع العامّة من إخوانه، فكيف بالخاصة؟!، بل كيف بأعظمهم منزلة، وأقدمهم مودة، وأزينهم إخوة؟!

إنّ غسّان لا يسعى نحو نفيٍ عاديٍّ، وإنما يريد نفيًا موكّدًا وقويًّا، وقد ظهر هذا جليا في هذا المبحث في استخدامه لام الجحود، ولعل هذا يتضح أكثر في مبحث الاستفهام الحجاجي، فثمّة علاقة قوية بين المبحثين؛ فالاستفهام عنده -في معظمه- غرضُه النفي، فلم يشأ

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٥.

غسّان أن يعبّر عن نفيه بصيغة الخبر، ولكنه عدل إلى الاستفهام، الذي يزيد معنى النفي قوة؛ وذلك بما يحمله من طاقاتٍ حجاجيةٍ وبلاغية كبيرة.

الحجاج العتابي:

لن نقف مع مصطلح الحجاج، واختلاف الناس فيه، وهل هو بديلٌ عن البلاغة القديمة؟، أو مرادف لها؟، أو آلية من آلياتها؟، ومتى ظهر هذا المصطلح؟ وإلى أين انتهى؟؛ فهذا ليس من مرامي البحث(١)!!

وإنّما شأنُنا مع الحجج التي أوردها غسّان في عتابه، وقد أراد أن يطوّق صاحبه من هذه الحجج طوقًا كأطواق الحمائم لا يُنْزع، ويُلبسه بُردًا منها لا يُخلع.

ولا عجب من كثرة الحجج في الرسالة؛ فالرجل في مقام الدفاع عن نفسه من تهمة شنيعة ألصقها به كارهوه، وهو يحاول بكلِّ السبل أن يصل بصاحبه إلى شاطئ الاقتناع بأن ثَوْبَه نظيف، وأنه لم يخرج من فلك المودة والوفاء.

١- حجة القيم:

القيم عليها مدار الحجاج بكلِّ ضروبه، وهي لئن خلت منها الاستدلالات ذات البعد العلمي والعلوم الشكلية، فإنها تمثل بالنسبة إلى مجالات القانون والسياسة والفلسفة غذاء أساسيًا؛ فهي التي يُعَوَّلُ عليها في جعْل السامع يُذعن لما يُطرح عليه من آراء(٢).

وقد استعان غسّان بحجة القيم في رسالته، يقول مستحضرًا قيم الحق والوفاء والأمانة: «ويُعملون أحلامهم فيها من حُرَم يتجاملون بها، وحقوق يتنازعونها، ومودة يتعاطونها، وأخوة يتداولونها، تُرْعى بوفاء، وتؤدَّى بأمانة، وتضيّع بتقصير»(٣).

يتكئ غسّان على هذه القيم ليُنزّه ساحته، فلا يمكن أن تصدر منه هذه النقائص لأنها تتعارض مع هذه القيم.

ويقول: «ولم يكن ليمتَّ بالأسباب إليّ أهل الفضل والأحساب، لا يدعوني إليهم إلا الرغبة فيهم، والتزيّن بأحسابهم، والاستمداد بمددهم، حتى إذا استحكمت حرمتهم وتظاهرت ووجبت وعظمت وصرتُ إمَّا محافظًا يزينه حفاظُه، وإمّا مضيعًا يشينه تضييعُه عملت في ذلك بما

(١) انظر في مفهوم الحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج بإشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، د.ت، ص ١١ – ٤٨، والحجاج في القرآن، د. عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م، ص ٨ وما بعدها.

(٢) في نظرية الحجاج، الدكتور عبد الله صولة، مسكيلياني، تونس، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٦.

(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠١.

يقطع ما أردت صلته، ويشين ما أردتُ زَيْنَه، ويصيرُ عليّ ولا يصير لي، ويُزَهِّد فيَّ نظراءَهم، إذا مددت بالأسباب إليهم، فأكون عند من اعتقدت إخاءه مقليًّا، قد تغيّرت عنده منزلتي، ومَنْ أردت استعارة مودَّته مكروهًا، لا يقبل ذلك مِنِّي، إنّي إذن إلى نفسي لمسيء، وبحظّي لمخطي»(١).

استحضر الكاتب هنا حجة الاستحقاق، وهي من الحجج القيمية الجامعة؛ فهو إنْ قابل هذا الإحسان بالإساءة فإنّه يستحق ما يحدثُ له، وهو الذي أساء إلى نفسه، والناس يقولون: «الجزاء من جنس العمل» و«أنت تحصد ما زرعت»، و«كما تكونون يُوَلّى عليكم»، وفي المثل: «يداك أَوْكَتَا وفوك نفخ». أما وقد ظهر ذلك واستقرّ في نفس الكاتب، فإنه لا يُقدم على عمل يُسيء به إلى نفسه، ويستحقُّ به أن يكون مقليًا عند إخوانه، فهلّا اقتنع صاحبُه بذلك!.

والمحتجُّ أحيانًا قد يعمد إلى تقنية في الحجاج دقيقة تعتمد القيم، لكنها تتأسّس على الفصل والتفريق بينها، بحيث تظهر ثنائيات مهمة، مثل: ظاهر وحقيقي، ونظري وتطبيقي، وفردي وجماعي، وخاص ومطلق، وأشهر هذه الثنائيات وأكثرها تواترًا في الحجاج ثنائية: ظاهر وحقيقي؛ ومن ثَمَّ اعتمدها غسّان في عتابه، يقول: «وما كانت لأقطعَ خاصتي ممّن يرغب في عامّتي، ولا لأضيعَ الكثير ممّن لا يضيّع اليسير، ولا ألقى أخًا شاهدًا، بغير ما أكون عليه غائبًا، فأكون قد لقيته بدلٍ، وغبتُ عنه بعذرٍ، ويكون قد استودعني شيئًا حفظت ضدّه وسترتُ سواه، بل أنا لأخي حين يغيب عنّي وأرعاه، أحفظ منّي حين يشاهدني فيعاينُ ما يكون منّي»(٢).

إنه يُبرئ نفسه من هذا النفاق عن طريق استدعاء هذه الثنائية، يقول: أنا لستُ مع إخواني من هؤلاء الذين لهم ظاهر، وحقيقتُهم مختلفة عنه، وإنما ظاهري وحقيقتي سواء، وسرّي لا يُخالف علانيتي .

وهكذا حشد غسّان الكثير من القيم في رسالته، ليسوّغ آراءه، ويثبّت مَوْقفه، ويقول في قوة ووضوح: إنَّ ما رُمِي به لا يصحُّ وغيرُ مقبول؛ لأنّه يتعارض مع هذه القيم.

٢- حجج تَسْتَدْعي المشترك:

المشترك هو ما يشكّل موضوع اتفاق بين المتلقين، أو يمثّلُ جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم، وله سلطة على النفوس؛ فهي تُذعن لما تعوّدت عليه، وتنفر ممّا لم تعتده. وبهذا

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٣.
(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٣.

نفهم لماذا يقع التصدِّي لكلِّ جديد في بداية ظهوره؛ إنه يُستهجن لأنه يهدّد سلطة المشترك، في حين يشكّل استدعاء المشترك ركيزة مهمة من ركائز الحجاج به يُقْنع المحتجُّ لفكرة أو مَبْدَأ مَنْ أمامه(١).

ولا ينحصر المشترك في تلك المبادئ العامة التي تشترك فيها كلُّ الشعوب والثقافات بطابعها الإنساني الواضح، وإنما قد يكون خاصًا كالمشترك عند العرب دون سواهم، نحو: الأمثال، والحكم، والأساطير والحكايات الشعبية، والمثل أكثر الأمور المشتركة تأثيرًا في المتلقي وأقدرها على النفاذ في عالمه ومن ثمّة تعبيره؛ فهو يملك طاقة حجاجية كبيرة(٢).

وأنت ترى هذه الأمور المنطقية العامة، والقواعد التي لا يختلف عليها أحدٌ مثبوثةً في ثنايا عتاب غسّان اللطيف؛ ظنًّا منه أنَّ طاقتها الحجاجية تُعينه في حمل صاحبه على الإذعان لمسألة براءته من هذه الوشايات والاتهامات.

يقول غسّان: «وما كنت لأختارَ الإخوان على فضلهم ثم أسير فيما بيني وبينهم بما يخالف أخطارهم ومنازلهم، لبئس إذنْ ما خالطت به الأكفاء، وراقبتُ به الحرم، وأسلمتُ به المودة التي قد أعطى الله فيها النعم، أترك مخالطة الأكفاء قبل اعتقادها، وإنْ كان الفضلُ فيما بيننا أحسنَ من إيجاب حقِّها، ثم المذموم الاستخفاف بها، **فإنّ المجانب المستور خيرٌ من المحافظ المذموم، ومن لِيم على جميل لم يتناوله، أحسن ممّن لِيمَ على سَمِحٍ قد أتاه**»(٣).

والمعنى: وإنه لجدير به أن يترك مخالطتهم مادام حالُه في السير معهم على ما ذكر. لكن انظر كيف وقع هذا المشترك العام في نفوس قارئيه: «فإنّ المجانب المستور خير من المحافظ المذموم، ومن ليم على جميل لم يتناوله، أحسن ممّن ليم على سمح قد أتاه».

ومرة أخرى يستدعي المشترك العام ليُقنع صاحبه بأنه أهل للثقة والصدق والوفاء، يقول: «وذلك أنَّ الكاذب كان بالتهمة على منزلتي وحرمتي، أحقَّ منّي بالتهمة على رأيي وخلقي، وأنا كنتُ عندك بالثقة في وفائي، أحقَّ منه بالتصديق في عضيهته إياي، **فإنّ الأخ المخبور أولى بالثقة من الساعي بالكذب والزور**»(٤).

---

(١) الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، الدكتورة سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١١م، ص ٢٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٩٤.

(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٣.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٤.

ويحضر المشترك العام مرّة أخرى في سياق ردّ هذه الوشاية ليرفع من سقف الإقناع عند صاحبه، يقول غسّان: «... فإذا لم تكن لذلك رادًّا مكذِّبًا، فهلّا كنت فيه واقفًا متأمّلًا حتى تكشفه ويتبيّن لك حقُّه من باطله! فإن وجدته حقًّا أتيت ما أتيتَ على بينة لك فيها حجّةٌ، وإن وجدته باطلًا كان **أن تستخرج أخاك من تهمة، خيرًا من أتقيم له على سخطة ولم يكن منه إساءة**»[(١)].

وما أجمل وقع هذا المشترك في عبارة غسّان: «والمرء يجدُ من أخيه إذا خانه بَدَلًا، ولا يجدُ عن نفسه إذا قصّرت به متحولًا، **فليس نقصٌ يُستبدلُ به كنقص لا يستطيع مزايلته**»[(٢)].

أليس مركوزًا في جميع الفطر السليمة أنَّ النقص الذي يمكن استبدالُه أهون بكثير من النقص الذي لا يمكن مفارقته والإقلاع عنه؟

٣- حجة التبذير:

حجة التبذير من الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع، وحاصلها: أنَّ الإنسان الذي يبدأ في عملٍ ما، ويقدِّم فيه تضحياتٍ كبيرة، ينبغي له أن يواصل ولا يتوقّف؛ لأنه حين التوقّف سيخسرُ كثيرًا.

ووجدنا لهذه الحجة مثالًا عند غسّان، وذلك حين قال: «... حتى إذا استحكمت حرمتهم وتظاهرت، ووجبت وعظمت، وصرتُ إما محافظًا يزينه حفاظه، وإمّا مضيّعًا يشينه تضييعه، عملتُ في ذلك بما يقطع ما أردت صلتَه، ويشينُ ما أردتُ زَيْنَه، ويصير عليّ ولا يصير لي، ويزهّد فيّ نظراءهم إذا مددت بالأسباب إليهم»[(٣)].

قطع غسّان مسافة كبيرة في طريق المودة والإخاء، وبذل من أجل استحكام ذلك الثمين من الوقت والمال، فهل يليق به ألا يكمل في هذه السبيل ويضيّع كلّ هذا؟،لا جرم أنه إنْ فعل ذلك ينظم نفسه في سلْك السفهاء.

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ٣/ ١٠١.
(٣) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٣.

٤- حجة التعايش:

حجة التعايش هي أيضًا من الحجج المؤسَّسة على بنية الواقع، وهي علاقة حصرها البعض في علاقة الذات بصفاتها أو الشخص بأفعاله، وتتمثّل في تفسير حدث أو موقف ما أو التنبؤ به انطلاقًا من الذات التي يُعبِّر عنها أو يُجَلّيها أو يوضّحها(١).

وما من شك في قوة هذه الحجة، وإذعان المنصِف لها، ولذا اتكأ عليها غسّان كثيرًا في عتابه؛ فصاحبُه قد خَبَرَه وعاشره، فكيف يترك هذه الحجّة القوية والمعاشرة الطويلة، ويركن إلى وشايةِ واشٍ؟!.

يقول غسان: «وإنه بلغني أنّ غاشًا ظالما أتاك بأمرٍ، لم أكن له أهلًا، ولم تكن بقبوله خليقًا، **لأنِّي لم أكن لأشباهه معروفًا**، ولم أكن على استماع مثلِهِ مخوفًا»(٢).

إنّ من أقوى ما يردُّ هذه الوشاية، أن الكاتب لم يُعْرف بأمثال هذه الرَّذائل من قبلُ.

وقال في موضع آخر: «**لقد طالت عشرتي**، وتردّد خبرُك عليَّ في حالات متصرِّفة، ومنازل مختلفة، لا يصرف حالي حالٌ انصرَفَتْ، ولا يقلب رأيي منزلةٌ انقلبَتْ، فكان ذلك منّي في غياب سلطانك، ثم كان في مؤاتي زمانك، والناس في ذلك تنصرف عنك حالاتُهم، ويختلف عليهم رأيُهم»(٣).

وقال في موضع ثالث: «**لقد بحمد الله خبرني الإخوان في طول هذا الزمان**، فبغير هذا عرفوني، وعلى غيره احتملوني، فما كنت لأعايشك بغير ما عايشتهم»(٤).

٥- الحجة القائمة على العلاقة التبادلية:

هذه الحجة من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية؛ فهي تحتكم إلى مبدأ منطقي هو "التبادلية"، أي معاملة طرفين متماثلين المعاملة ذاتها، لكنّ أسوار حصن هذه الحجة ليست من القوة بمكان، فيكفي أن تُقذف بأحجار التشكيك فتنهار.

ومثالها في رسالة غسّان: قوله: «ولو كانت منك إساءة فيما بيني وبينك لرأيتُ أن قد وَجَبَ عليَّ ما يوجب احتمال ذلك ...»(٥).

---

(١) الحجاجُ في الشعر العربي، ص ٢٢٨ وما بعدها.

(٢) جمهرة رسائل العرب، ٣/ ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٥.

(٥) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٦.

يقول غسَّان: ألا أستحق أن أعاملَ بمثل معاملتي لك، ألسنا إخوة؟!، وإنه لو بدرت منك إساءة لرأيت من الواجب عليَّ تحمّلَ ذلك، والصفح عنه، فلماذا لم تتحمل هذه الإساءة –على فرض حدوثها– وتعفو عنها؟!.

٦– حجةُ الاشتمال:

حجة الاشتمال من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، فهي تقوم على المبدأ الرياضي الذي يقول: ما ينسحب على الكل ينسحب على الجزء من هذا الكلّ(١).

يقول غسّان مستعينًا بهذه الحجة: «... ثم أحقُّ من كنتُ له الجميل فيما بيني وبينه، أهلُ الفضل في المنزلة، والثقة في المكافأة، والأمانة في الوفاء، والجمال في الإخاء ...» (٢).

تجب على غسان مصافاة إخوانه، والنصح لهم، والقيام بحقوقهم، وصاحبه داخلٌ في هؤلاء الإخوان، فما يجري عليهم يجري عليه، فلماذا يخونه؟!، بل هو أولى منهم بهذه الحقوق؛ فهو أرفعهم منزلة، وأعظمهم مكانةً؛ وهذا ما يُسَمَّى عند الأصوليين بـ "قياس الأولى".

وقال في موضع آخر: «لقد –بحمد الله– خبرني الإخوان في طول هذا الزمان، فبغير هذا عرفوني، وعلى غيره احتملوني، فما كنت لأعايشك بغير ما عايشتهم، ولا لأعمل في إخائك بغير ما عملت في إخائهم، وأنت أعظمهم منزلة، وأقدمهم مودة، وأكملهم ثقة، وأزينهم أخوّة، وأجملهم محافظة»(٣).

ينفي غسان نفيًا مؤَكَّدًا أن يعامل صاحبه بغير ما يعامل به بقية إخوانه، بل هو الجدير بالأفضل من المعاملة وحقوق الإخاء؛ لعِظَمِ جميله وعظيم منزلته، وهذا أيضًا من قياس الأولى.

قياسُ الأولى هذا حضر عند غسّان في مواضع أخر، وهو حجة قوية؛ فإذا كان الحكم ينسحب على الأدنى فانسحابُه على الأعلى من باب أولى. ومن هذه المواضع قوله: «ولو وجدت من أهل الدناءة والسفاه من شينُه بهم ألصق، وهم به أحق، ما أنا بالقول فيهم بحريّ، وايم الله إني لأرى الشعر في جميل الأمور، وحسن الثناء على الصديق قبيحًا، فكيف إذا كان في الظلم والعدوان، والفجعة للإخوان؟»(٤).

---

(١) الحجاج في الشعر العربي، ص ٢١٠.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٢.

(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٦.

وقوله أيضًا: «وإنّي لأرجو أن أكون ممّن يصبر للوفاء على بلية إن نزلت، فكيف أخرج منه بغير اضطرار إلى غيره»[1].

رأينا كيف تنوّعت الحجج عند غسّان في رسالته وتعدّدت، فما من باب من أبواب الحجاج إلا ويحاول غسان وُلوجَه، وليس ولوجه فقط، وإنما ولوجه بقوة، وما من خيط من خيوط الإقناع إلا وتعلّق به، لعلّه إنْ تمسّك بمجموعها -في ظنه- أن يصل إلى مبتغاه، وينجو من جُبِّ الفرية والوشاية والاتهام.

وإنه لمن نافلة القول أن نذكّر بدلالة هذا، فهذا واضحٌ جليٌّ: إنّ غسان صاحب عقلية خصبة وفكر عميق ومنطق سليم؛ يشهد له حجاجُه، ويشهد له أدبُه، وحُقَّ لابن طيفور أن ينظم رسالته في العتاب هذه في سِلْك الرسائل المفردات.

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

الاستفهام الحجاجي:

لقد نجح غسان في أن يوظّف السؤال توظيفًا إقناعيًا جيّدًا. وساعده في ذلك ما يمتلكه السؤال من طاقة إقناعية كبيرة؛ فالسؤال يُحيل على صعوبة معرفية أو على ضرورة اختيار، وإذا بالسائل متى طرح سؤالًا دعا المتلقِّي إلى اتخاذ قرار(١). وإثارة السؤال أو استدعاؤه يولّد بالضرورة نقاشًا، ومن ثمّة حجاجًا، فإذا بالكلام والحجاج متصلان على نحو عميق، وإذا بالحجاج ماثل في كل نوع من أنواع الخطاب، وعلى هذا النحو ندرك خطورة طرح الأسئلة في الخطاب؛ إنها وسيلة مهمة من وسائل الإثارة ودفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مُشكِلٍ مطروح.

إنَّ أسلوب الاستفهام يحمل في ذاته قوة إنجازية تُكسبه طابعًا حجاجيًا، كما يحمل في أبعاده الاستعمالية ومقاماته قوة تأثيرية، فيسعى مستعملُه إلى تغيير واقع من خلال حمل المخاطَب على فعلٍ ما(٢). والإنسان قد يعدل في تعبيره عن النفي والإنكار والإقرار وغير ذلك من الصيغ الخبرية إلى الصيغ الإنشائية كالاستفهام مثلًا؛ لكون ذلك أوقع في النفس وأدلَّ على الإلزام.

جاء الاستفهام في رسالة غسّان في **عشرة مواضع**، وفي كلّها لم يكن الاستفهام على حقيقته؛ وإنما جاء لمعنى بلاغي، وهدفٍ إقناعي، ثمانية مواضع من العشرة لتوكيد النفي، وواحد للإقرار أو التقرير، وواحد للإنكار.

ولا نعجبُ من ذلك؛ فجوُّ الرسالة العام هو النفي، نفيُ هذه التهمة التي ألصقها الوشاة بغسان، ودفْعُ هذه الفرية التي عكّرت صفْو المودة.

يقول غسان: «فأيُّ نقص أكثر، وأيّ دناءة أبين، من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقة، قد حفظت منه حرمة، واعتقدت بها عليه أمانة، فوجبت منه مصافاة، وانتُظرت منه صلة، ثم ينكشف عن غدرٍ وقطيعة فجعة؟»(٣).

---

(١) الحجاج في الشعر العربي، ص ١٤١.

(٢) انظر: اللغة والحجاج، الدكتور أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م، ص ٤٥ وما بعدها، والمنحى التداولي في التراث اللغوي- الأمر والاستفهام نموذجين، خديجة الشنقيطي، عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٦م، الأجزاء الخاصة بالاستفهام، وحجاجية الاستفهام في اللسان العربي، عبد الحق بالمادن، مقالة على الإنترنت، موقع نماء للدراسات والبحوث، سبتمبر ٢٠١٩م.

(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٢.

إنه ينفي عن نفسه هذا النقص العظيم، وهذه الدناءة البيّنة؛ فالمعنى: لا نقص أكثر من هذا، ولا دناءة أبين من هذه.

وقال في موضع آخر: «وإذا كان يحفظ الإخوان ما هو مثلوم بأيدي السفهاء، إذا شاءوا سَعَوا فقبل قولُهم، فكيف تبقى على ذلك أخوة، أو ترعى معه حرمة، أو يصلح عليه قلبٌ، أو يسلم صَدْرٌ؟»[(١)].

نعم، لا تبقى الإخوة ولا تُرعى الحرم ولا تصلح القلوب ولا تسلم الصدور إذا كانت الحال كذلك.

وينكر غسّان على صاحبه تناقضًا في حاله؛ إذ كيف يسخط على أهل الدناءة، وفي الوقت نفسه يقبل سعايتهم ووشايتهم بإخوانه؟!، يقول: «وكيف تسخط على أهل الدناءة لإخائك وترضى قولهم على إخوانك»[(٢)]. وخروج الإنكار هنا بصيغة الاستفهام أبلغ من خروجه بصيغة الخبر؛ فغسّان حين ألقى الكلام بصيغة الاستفهامفكأنه ينتظر من صاحبه جوابًا، فهو سيفكّر، ويراجع نفسه، وسيجد نفسه بعد هذه المراجعة، وبعد هذا التفكير في ضيق وحرج، لا يُجير معهما جوابًا. وإلقاؤه بهذه الصورة أيضًا يدلُّ على الثقة التي تملأ نفس غسّان، لأنه يُلقي كلامه وهو يدرك أنه لو كان في كلامه أدنى ريب؛ لردّه عليه قائله جوابًا عن استفهامه[(٣)].

وينفي غسان عن نفسه هجاءه لصاحبه؛ لأنه إنْ فعل ذلك يكون قد هجا نفسه أولًا، وبدرجة أكبر وأقوى من هجائه لصاحبه؛ لأنه حينئذ يكذِّبُ نفسه في مدحها السابق لصاحبه والثناء عليه، يقول: «ولو أنّي هجوتك لكنت لنفسي بهجائك، أهجى مني لك،لأنّي بذلك لها مكذّب فيما سلف من مدحتي إيّاك، وثنائي عليك، وقولي فيك! فهل يهجو امرؤ غيره بأشدّ من إكذابه نفسه؟»[(٤)].

هذا العدول في التعبير عن النفي من الخبر إلى الإنشاء يعطينا دلائل كثيرة[(٥)]، ولتوضيح ذلك نذكر الأمثلة الآتية من كلام غسّان:

---

(١) المصدر نفسه، ٣/ ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) البلاغة العربية فنونها وأفنانها (علم المعاني)، للدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، إربد، ط٤، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، ص ١٩٩.

(٤) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٦.

(٥) في نظرية الحجاج، للدكتور عبد الله صولة، ص ٩٧ وما بعدها.

قوله: «... فكيف إذا كان في الظلم والعدوان والفجعة للإخوان؟»[١]

←عوض (أنا لا أقول الشعر في الظلم والعدوان والفجعة للإخوان).

وقوله: «... فكيف أرضى أن يكون منِّي ما أستحقّه به؟»[٢]

← عوض (لا أرضى أن يكون منِّي ما أستحقه به).

وقوله: «فكيف أخرج منه بغير اضطرار إلى غيره؟»[٣]

← عوض (لا أخرج منه بغير اضطرار إلى غيره).

وقوله: «فكيف أسخط على من أساء القول إليّ إذا أسأت الفعل إلى نفسي؟ وأُسَرُّ بأن يُحسن لي القولَ وأنا مسيء إلى نفسي في الفعل؟ فهلّا رغبت بي أن أكون أتيت ذلك»[٤]

عوض (لا أسخط على مَن أساء القول إليّ إذا أسأت الفعل إلى نفسي، ولا أسرّ بأن يحسن لي القولُ وأنا مسيء إلى نفسي).

بَوْنٌ شاسع بين التعبير بالخبر والتعبير بالاستفهام؛ فالتعبير بالخبر أقرب إلى أن يكون مجرّد وصف للأمر ومجرّد إخبار. أمّا في حالة الاستفهام فهو يجعل المخاطب في الاتجاه الذي يرسمه السؤال؛ فالمخاطب بمثل هذا الأسلوب لا يكون مجرّد شاهد، بل هو مَعنيٌّ بما يُقال.

العدول إلى الإنشاء ينقل محتوى الكلام من احتمال أن يكون صادقًا أو كاذبًا إلى عدم احتمال ذلك، فهو مجرّد عمل لغوي حاضر في المقام.

وإحلال الاستفهام محلّ النفي يجعل الكلام مؤديًا لهذا المعنى كما قال البلاغيون، ولكنه يزيدُ شيئًا آخر، وذلك على النحو التالي:

فكيف إذا كان في الظلم والعدوان والفجعة للإخوان؟ ←

نفي + إصرار على النفي

فكيف أرضى أن يكون منِّي ما أستحقه به؟ ← نفي + إصرار على النفي

فكيف أخرج منه بغير اضطرار إلى غيره ← نفي + إصرار على النفي

فكيف أسخط على من أساء القول إليّ إذا أَسأت الفعل إلى نفسي؟

← نفي + إصرار على النفي

---

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

وهذا المعنى الثاني الزائد على أصل المعنى المستفاد من الاستفهام هو الذي يعمّق درجة الإقناع بالغاية التي يتيمّم نحوها الخطاب.

بقي أن نُشير إلى أمرين مهمّين: الأول: إنَّ سؤالات غسّان أتت في نهايةِ فِقَر، وفي تمامِ معنى، فهي دائمًا: "فكيف" و"وكيف" و"فهل" و"فأيّ"، أي إنها بُنيت على مقدّمات، وجاءت لتمكين المعنى في نهاية الكلام، وهذا من شأنه أن يزيدها قوة إلى قوتها، ويمنحها طاقة حجاجية فوق طاقتها.

والثاني: إنَّ حضور النفي بقوة في صورة الاستفهام يعيد إلى الذهن مبحث النفي بلام الجحود الذي تقدّم قبل قليل، اختلفت الآليات والوسائل، والغرض في الحالين واحد، هو قوة النفي وتوكيده، لكنه هنا بالعدول عن التعبير عن النفي من الخبر إلى الاستفهام، وهناك بالخبر، لكن ليس بصيغة عادية وإنما بصيغة لام الجحود.

التصوير:

انطلق غسان يُعَبّر عن معانيه ببراعة عجيبة، ودقة متناهية، وانتقاء موفّق، ووسيلتُه في تشكيل هذه المعاني وتصويرها هي الاستعارة، نعم، الاستعارة دون غيرها من أنواع المجاز!.

لم نكد نرى التشبيه إلا مرّة أو مرتين، أمّا الاستعارة فحضرت في أكثر من **ثمانية عشر موضعًا** من الرسالة. وهذا يفسِّره العقليةُ العميقة لكاتبنا؛ فالاستعارة تحتاج إلى إعمال عقل أكثر من التشبيه. وهذه العقلية العميقة للكاتب شكّلتها الثقافات المتعددة التي جرت في نهر النثر العربي، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في سياق حديثنا في ترجمة غسّان.

وقد استقى غسّان مادة صوره من مصادر متعددة، **قرأ القرآن**، وأثّر ذلك في أسلوبه ومعانيه، فنراه يستعين بصوره في رسالته، وانظر مثلًا قوله: «وقد ألبس الله عبادًا من عباده نعمًا، وجعل لهم في صلاح الأمور قَسْمًا»[(١)].

تصوير الأمور المعنوية في صورة اللباس موجود في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ (الأعراف: ٢٦)، وفي قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ (النحل: ١١٢).

ومّرة أخرى نرى أثر القرآن الكريم في استعاراته؛ إذ يقول: «ولا ينظرون لك ولا يبالون ما دخل –إذا أصابوا– في جنبك»[(١)].

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠١.

وكأنّي بك حين ترى هذه الاستعارة تتذكّر قوله تعالى: ﴿ **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾ (الزمر: ٥٦). والله عز وجلّ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وما من شك عندنا في أن غسان بن عبد الحميد كان **يعرف عبد الحميد الكاتب ورسائله معرفة جيّدة**، وإن زعمنا أنه قد التقاه فلن نكون قد أبعدنا النُّجْعة، فثمَّة تأثّرٌ واضح به في رسائله، فما تراه من عناية بالترادف الذي ينتهي إلى الازدواج وعناية بالتصوير والطباق في رسائل غسان هو عينُه ما تراه في رسائل عبد الحميد الكاتب.

وقد استثمر غسان **مخزونه الثقافي** من رسائل عبد الحميد في استعاراته؛ استمع إليه حين يقول: «ولم تكن حاجتهم حين نبا بك الزمان إلا أن يخذلوك ويدفنوا مودتك ويُميتوا ذكر إخائك»(٢).

وقارِنْ بين ذلك وبين قول عبد الحميد في رسالته للكتّاب: «وإنْ نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسُوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره»(٣).

و**بيئةُ الحرب** حاضرة في استعارات غسان، يقول: «وكنتُ أحسبُ منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حصن حصين، ومحلٍّ مكين ...»(٤). ولعلّه كان موفقًا جدًّا في استعارته هذه؛ فقد نقل صورة الحرب التي تُشَنُّ على منازل الإخوة إلى العيان، وأراك كيف تُشَنُّ الغارات على هذه المنازل، التي إنْ هُدِمَتْ ضاعتالدنيا كلُّها. ولذلك ينبغي أن تكون هذه المنازل دائمًا في حصن حصين، لكن غسان يأسف لضعف هذا الحصن عند صاحبه وهشاشته، ومن ثمَّ اختُرق بكلِّ سهولة، وتهدَّم بهجوم ضعيف.

ولا أدلّ على ذلك من استعارته الأخرى التي يقول فيها: «إذا كان يُحفظ الإخوان ما هو مثلوم بأيدي السفهاء، إذا شاءوا سَعَوْا فقُبل قولُهم، فكيف تبقى على ذلك أخوّة ...»(٥). أرأيت ضعف السلاح، إنه سيف مثلوم، مكسورٌ حرفُه، وأيضًا حامله ضعيفٌ سفيهٌ، ومنع ذلك أحدث أثرًا ضخمًا؛ فالخللُ إذن عند حرّاس هذه الحصون.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء نفسه، ص ١٠٥.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٥.

(٣) الرسالة بكاملها في جمهرة رسائل العرب، ٢/ ٤٥٥ – ٤٦٠.

(٤) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٣، ١٠٤.

(٥) جمهرة الرسائل،٣/ ١٠٤.

الاستعارة تُريك معاني الإخوة في حصنٍ حصين، وتُريك أقوال الوشاة سيفًا مكسورًا في أيدي سفهاء عابثين؛ فالاستعارة قراءة متجددة للأشياء، ورؤية متجدّدة لها كذلك، يُستخرجُ بها من الشيء الواحد عدّة معانٍ، ويُرى من خلالها الشيء الواحد من زوايا مختلفة، وفي كلّ مرّة تختلف الرؤية، ويقول عبد القاهر: «فإنك لترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرْسَ مُبينة، والمعاني الخفية بادية جليّة، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصرَ لها أعزُّ منها، ولا رَوْنَقَ لها ما لم تَزِنْها، وتجدُ التشبيهات على الجملة غير مُعجِبة ما لم تكنها. إنْ شئت أرتك المعانيَ اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنّها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإنْ شئت لطّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون»[(١)].

وما قاله عبد القاهر هو ما تراه في استعارات غسان، إنّك ترى المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل مجسّمة تراها العيون، انظر كيف صوّر غسّان غَدْر الناس بصاحبه واستغلالهم له بقوله: «فلم تكن حاجةُ كثيرٍ من الصديق في السلطان إلا أن يأكلوك أو يأكلوا بك»[(٢)]. ثم تأمّلْ كيف جعل تبرئته من التهمة بمنزلة استخراجه من بئر سحيقة سقط فيها، ويقول: «... كان أن تستخرج أخاك من تهمة، خيرًا من أن تقيم له على سخطة ولم يكن منه إساءة»[(٣)].

ثمّ اعجبْ من تجسيمه للوفاء والأُخوّة والمودة: «مَنْ ضيّع الوفاء لإخوانه»[(٤)]. «فحمّلوه إخوتهم»[(٥)]. «ومن أردت استعارة مودته مكروهًا»[(٦)].

لا ينفكُّ غسّان عن **بيئته** التي يعيش فيها، يؤثّر فيها وتؤثّر فيه، تنعكس في مرآة كلماته، وتراها في فصيح عباراته، وهي المادة أو المصدر الأوّل لاستعاراته.

البادية على سبيل المثال ماثلة في رسالة غسّان، يتأملها ويوظّف ما فيها في معانيه: الوفاء هو رأس مال العرب المعنوي، ومن ثمَّ ينبغي أن يُحْرَس ويحفظ ويُرْعَى، كما تُرْعى الأغنام

(١) أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ص ٤٣.
(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٥.
(٣) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٤.
(٤) نفسه، ٣/ ١٠١.
(٥) نفسه، ٣/ ١٠٢.
(٦) نفسه، ٣/ ١٠٣.

التي هي رأس مالهم المادي أو أشدّ، يقول غسّان: «واسترعوه الوفاء لهم، حتى ثبّت الله بينهم وبينه ما كان داعيًا لكلِّ رأي جميل»(١).

والخيلُ تجري لتبلّغ أصحابَها مرادَهم، والخيل والخير قرينان، لكن الذي جَرَى على لسان صاحب غسّان لم يكن خيرًا، يقول غسّان: «لقد جَرَى على لسانك ما لم يجر على لسان أخٍ قبلك، واضطررتني في إخائك إلى معاذير لم يضطرني إليها أحدٌ سواك»(٢).

والخيل تُحبس لنفع صاحبها، وتُحبس للجهاد، وكذلك الإبل والغنم، لكن المحبوس عند غسّان شيء من نوع آخر، إنه حبسٌ للرأي، يقول غسّان: «واعلم أنا لم نَخُلْ عن حبس الرأي في حفظ حقّك ساعة من ليلٍ أو نهار، في سرٍّ ولا علانية»(٣).

والمسافر يُنْزَل منزلةَ الإكرام والإعظام عند أحبابه، لكن الوضع عند غسّان مختلف، فبعد سفره الطويل في رحلة الحياة مع صاحبه وإليه، ينزل منزلة غير المكرَّم، يقول غسّان: «فما أعظم عندي أن أُنْزَل منزلة استخفاف بحقّك، أو تهمةٍ عندك على براءة فيما بيني وبينك»(٤).

لقد نجح غسّان من دون ريب في استخدام الاستعارة من أجل إقناع صاحبه ببراءته، فقد جسّد الأمور المعنوية وأنطقها بالشهادة على نزاهته. واستطاع من خلال ذلك أن يقرّب معانيه إلى صاحبه؛ حتى يلين قلبه، ويسلم صدره، ويتبيّن له الحق من الباطل.

(١) نفسه، ٣/ ١٠٢.
(٢) نفسه، ٣/ ١٠٥.
(٣) نفسه، ٣/ ١٠٧.
(٤) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٥.

صحّةُ التقسيم:

صحةُ التقسيم محسِّنٌ بديعيٌّ، معناه: استيفاء المتكلِّم أقسام المعنى الذي هو آخذٌ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئًا[(١)]. وفائدته: حصر جوانب المعنى، وترتيبها في ذهن السامع في جمل متناسبة، وهذا مما يزيد في درجة الإقناع.

وقد حضر التقسيم في **أحد عشر موضعًا** من رسالة العتاب، ويشفُّ هذا الحضور الكثيف عن عقلية غسان القوية المرتبة، التي تُمسك بخيوط كل معنى من المعاني التي تتحدث فيها بقوة وإحكام، لا ينفلت خيط واحد، ولا يغيب عنها جزءٌ من الأجزاء.

يقول غسّان: «لقد عرفت أنّ على الأخ من ردِّ الكذب عن أخيه ما حسّن الغيب له، فإذا لم تكن له رادًّا مكذّبًا، فهلا كنت فيه واقفًا متأمّلًا ...» [(٢)].

إنه يحاصرُ صاحبه، لأنّ صاحبه إمّا أن يَرُدّ هذه الفرية ويكذّبها، وإمّا ألا يردّها لكنه يتوقّف ويتأمّل فيها ويتثبّت، ولا يوجد قسم ثالث؛ لأنّ تصديق الواشي من دون التثبت داخل في الباطل. ومن ثمَّ فإن صاحبه مخطئ لأنه لم يَرُدَّ هذه الفرية، ولم يتثبّت فيها.

ويستدل غسّان على وفائه لصاحبه وعدم تلوّنه باستيفاء الأقسام، يقول: «فكان ذلك ميّتٍ في غياب سلطانك، ثم كان في مؤاتي زمانك ...»[(٣)].ويقول أيضًا: «واعلم أنّا لم نَحُلْ عن حبس الرأي في حفظ حقّك ساعة من ليلٍ ولا نهار، في سرٍّ وعلانية، ولا غيبةٍ ولا شهادة»[(٤)].

إنّ غسّان وفيٌّ لصاحبه في غياب سلطانه وفي وجوده، وصاحبه لا يخلو عن حالٍ من هاتين الحالين، وقدَّم غياب السلطان للعناية به ولأهميته؛ فإنّ الأُخوّة الحقيقية هي التي تكون في غياب السلطان، لأنها تخلو من كل شوائب الدنيا؛ ومن ثمّ فهي الأصل، وأمّا الأخوّة أيام وجود السلطان فلا تسلم من شائبة الدنيا.

وغسان كذلك لا يبخل بالنصح لصاحبه أبدًا، لا في ليلٍ ولا نهار، ولا في سر ولا علن، وهذا الاستيفاء منه للأقسام لئلا يترك صاحبه فريسة للظنون والأوهام والوساوس ووشاية الواشين، فإنّه إن لم يستوفِ الأقسام ربما يقول صاحبه: إنه ينصح في العلن، وقد لا يكون

(١) تحرير التحبير، ص ١٧٣، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، ٤/ ٦٠٩.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ٣/ ١٠٧.

ناصحًا في السرّ، أو: إنه ينصح في النهار، لكننا لا ندري ماذا يفعل في ليله. فيأتي استيفاء الأقسام ليقضي على ذئاب الأوهام والوساوس والوشايات.

ثم إنه أتى بالنكرة في سياق النفي (ساعة)، والتي تفيد العموم، ليؤكد هذا المعنى.

وقال في سياق ذكر نعم الله عليه: «ولم أزلْ أتعرّف من نعم الله عليّ، قديمًا وحديثًا، ويافعًا ومسنًّا، فيما أبلاني وأظهر منّي، وأثبت معرفته عند الناس، ما أصبحت أرى استصلاحه والتوقّي لتغيُّره حقًّا عليَّ واجبًا»(١).

إنه يحدّث بنعم الله عليه في القديم والآن، وفي شبابه وشيخوخته، يُرجع الفَضْل لصاحب الفضل، ويرى أنّ من أعظم هذه النعمة نَعمة الأخوّة، ومن ثَمَّ يجب عليه أن يُديم شُكْرَها، وأن يسعى دائمًا لاستصلاحها وعدم ذهابها وتغيّرها.

وقال غسّان مُبيّنًا قوة الصلة وإحكامها بينه وبين إخوانه: «... الذين ارتادوا ارتيادًا، واختارَ واختاروا، فوقع رأيه عليهم، ووقع رأيهم عليه، وارتضوه لأنفسهم، وارتضاهم لنفسه، واقتصروا عليه بمودتهم، واقتصر عليهم بمودته، فحمّلوه أخُوّتهم، وحمّلهم أخوّته، واسترعوه الوفاء لهم، حتى ثبّت الله بينهم وبينه ما كان داعيًا لكل رأي جميل، نابيًا لكلِّ صنيع معيب، وأمر مُريب»(٢).

إنَّ الكاتب على درجة كبيرة من الوعي، ويعلم كثرة الكلام والإشاعات في مثل هذه الظروف؛ لذلك يلج كل طريق من طرق حسم الشكوك والظنون، وغرس اليقين ببراءته في قلب صاحبه، فمرّةً باستيفاء الأقسام، ومرّة بالاستعارات القوية، ومرّة بالنفي بلام الجحود، ومرّة بالاستفهام الحجاجي ...

البنية الإيقاعية:

تتابع المقاطع على نحو خاصٍّ يُهيّئ الذهن لتقبّل تتابع جديد من هذا النمط دون غيره؛ وهذا مما يساعد على إيصال الفكرة وثبات الكلام.

ومبعث الإيقاع في الشعر توالي التفعيلات بما فيها من متحركات وسواكن وتتابعها على نحو منتظم في البيت من القصيدة، بينما مبعثها في النثر المناسبة والموازنة بين الألفاظ في الجمل والعبارات، أو بين الجمل والعبارات أنفسها، وهذا التناسب قد يكون لفظيًا، وقد يكون

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٢.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٢.

معنويًا، ومن أنواع التناسب اللفظي: السجع والازدواج، ومن أنواع التناسب المعنوي: الجناس والطباق(١).

إذن أعمدة الإيقاع في النثر أربعة، هي: السجع والازدواج والجناس والطباق.

أما السجع فحضر في رسالة غسّان، لكنّه لَمْ يلتزمه في الرسالة كلها، وأما الازدواج فكثير، واتخذ غسّان الترادف وسليةً إليه. وبالنسبة للجناس فكثير أيضًا، وكذلك الطباق والمقابلة.

وهذه السماتُ الأسلوبية هي سماتُ الكتابة بصورة عامة في هذا الوقت؛ نهاية العصر الأموي وبداية العصر العبّاسي. أما التزام السجع والتأنّق البديعي فقد اشتدّا منذ القرن الرابع الهجري.

كان لابد لغسان في عتابه من حشد كل الوسائل التي تُعينه على إيصال كلامه وإثبات براءته، وبالتالي أخذت البنية الإيقاعية عنده حظّها.

يقول غسّان في بداية رسالته: «أمّا بعد: فإن الله جعل العباد أطوارًا في أخلاقهم، كما جعلهم أطوارًا في صورهم، وجعل بينهم أمورًا يتآلفون عليها، ويُعْملون أحلامهم فيها، من حُرَم يتجاملون بها، وحقوق يتنازعونها، ومودّة يتعاطَوْنها، وأخوَّة يتداولونها، تُرْعَى بوفاء، وتؤدَّى بأمانة، وتضيّع بتقصير، وتنتقص بخيانة، ليس من أُدِّيت إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدِّي لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه، وليس من ضُيِّعت منه بأشقى ممّن ضيعّها فيما يُدْخل من التقصير عليه»(٢).

ولعلّك –إذا تأمّلت هذه القطعة– واجدٌ هذه الفنون البديعية متضافرة في رسم هذه الظاهرة الصوتية؛ فالسجع حاضر –وإنْ لم يُلْتَزَم في القطعة كلها– في قوله: «وجعل بينهم أمورًا يتآلفون عليها، ويُعملون أحلامهم فيها، من حُرَمٍ يتجاملون بها، وحقوق يتنازعونها، ومودّة يتعاطونها، وأخوّة يتداولونها».

وساعد الترادف في الوصول إلى التوازن بين الجمل وحدوث الازدواج، أرأيت هذه الجمل المتوازنة: «من حرم يتجاملون بها، وحقوق يتنازعونها، ومودة يتعاطونها، وأخوة يتداولونها، تُرْعَى بوفاء، وتؤدَّى بأمانة، وتضيّع بتقصير، وتنتقص بخيانة».

(١) نظرية الأدب، الجزء الأول، للدكتور عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٧م، ص٦٧.

(٢) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠١.

وعاونُ **الجناسُ** أيضًا في رسم هذه الظاهرة الصوتية، ومن أمثلته: (جعل- جعلهم) (أخلاقهم – أحلامهم) – (أُدِّيَتْ – المؤدِّي) – (ضُيِّعت – ضيّعها).

ومن أمثلة **الطباق**: (تُرْعَى – تُضَيّع) – (تؤدَّى – تُنتقص) – (وفاء – خيانة) – (أمانة – تقصير) – (أُدِّيت – ضُيِّعَت) – (أسعد – أشقى) – (الفضل – التقصير).

وقد استكمل غسّان بالمقابلة المشهد في قوله: «ليس مَنْ أُدّيت إليه فيما يحفظ منها بأسعدَ من المؤدّي لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه، وليس من ضُيِّعت منه بأشقى ممّن ضيّعها فيما يُدْخل من التقصر عليه».

ولنأخذ قطعة أخرى من الرسالة حتى تتضح الرؤية أكثر، قال غسّان: «وإنه بلغني أنّ غاشًا ظالما أتاك بأمرٍ، لم أكن له أهلًا، ولم تكن بقبوله خليقًا، لأنّي لم أكن لأشباهه معروفًا، ولم أكن على استماع مثله مخوفًا، فوجدك فيك مساغًا، وعندك مستقرًّا، وكنتُ أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حِصْنٍ حصين، ومحلٍّ مكين، لا ينالُه أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويل المفسدين؛ وذلك أن الكاذب كان بالتهمة على منزلتي وحرمتي، أحقَّ منّي بالتهمة على رأيي خُلَقي، وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي، أحق منه بالتصديق في عضيهته إيّاي، فإنّ الأخ المخبور، أولى بالثقة من الساعي بالكذب والزور»[(١)].

السجع موجود في هذه القطعة لكنه غيرُ ملتزم، والترادف كثير، ومن ثمّ حدث التوازن والازدواج بين الجمل. والجناس حاضر في: (أكن – تكن) – (مساغًا–مستقرًّا) – (عندك – منك) – (حصن – حصين) – (حصين – مكين) – (أكاذيب – الكاذبين) – (منزلتي – حرمتي) – (المخبور – الزور) – (معروفًا – مخوفًا). وقد أحدث هذا الجناس ميلًا إلى الإصغاء، فإنّ مناسبة الألفاظ تُحدث ميلًا وإصغاءً إليها، ولأنّ اللفظ إذا حمل على معنى، ثم جاء به معنى آخر، كان للنفس تشوّفٌ إليه، وهو من ألطف مجاري الكلام، ومحاسن مداخله.

وما أجمل موقع المقابلة في قول غسّان: «وذلك أنّ الكاذب كان بالتهمة على منزلتي وحرمتي، أحقَّ منّي بالتهمة على رأيي وخلقي، وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي، أحقّ منه بالتصديق في عضيهته إيّاي». إنها مقابلة جيّدة، تعيدُ الأمور إلى نصابها الطبيعي مرّة أخرى، تعيدُ الكاذب إلى وضعه الطبيعي، ومحلّه اللائق به؛ فهو أهلٌ لأن يُكذَّب، كما تُرجع للثقة منزلته ومكانته، فهو أهلٌ لأن يُصَدَّق.

(١) جمهرة الرسائل، ٣/ ١٠٣، ١٠٤.

ومن **الإيقاع الداخلي الخفي** توظيفُ أصوات معينة وتكرارها بنسب بارزة، وهذا التكرار من شأنه أن يُحدث- بالإضافة إلى في مساهمته في البنية الإيقاعية- أثرًا في نفس المتلقي(١)، والناظر في رسالة العتاب يجد تكرارا واضحا لبعض الحروف في بعض المواضع، ومنها (**حرف الخاء**)؛ فقد تكرر **ثماني مرات** في قول غسان: «فإنه من أخطأهُ الوفاءُ من أخيه، فإنما يَدْخل عليه تقصيرُ غيره، ومن ضيَّع الوفاءَ لإخوانه فقد أَدخلَ النقصَ في خاصَّة نفسِه، والمرء يجدُ من أخيه إذا خانه بَدَلًا، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرَت به متحوَّلًا»(٢). وحرف الخاء مخرجُه من أدنى الحلق، وهو مهموس رخو، ومن حروف الاستعلاء(٣). ويبدو أنّ حلْقَ غسان يتألم من شدة هذه الوشاية، لكنَّ نفسه تسمو وتعلو عن هذه الأخلاق الدنيئة. وتكرار هذا الحرف يكشف لنا عن خوف الأديب على معاني الأخوة من الضياع، وخوفه من خسران الأصدقاء.

وتكرّر (**حرف السين**) **تسع مرات** في قوله: « ولو كنت على وقع عليه لكنت بالنقص على نفسي مُقِرّا، وكيف أَسخَطُ على من أساء القول إليَّ، إذا أسأتُ الفعلَ إلى نفسي؟ وأُسَرُّ بأن يُحْسِن لي القولَ وأنا مسيءٌ إلى نفسي في الفعل؟»(٤). وحرف السين يخرج مما بين الثنايا وطرف اللسان، وهو صوت رخوٌ مهموس(٥)، ويوحي هذا الحرف بحالة الانكسار التي يعيشها الأديب، كما يشفُّ عن مدى أسفه على ضياع معاني الأخوة، وعن الإساءة العظيمة التي تعرّض لها.

وحضرت حروف الحلق (**الهمزة والحاء والخاء والعين**) بكثافة في ختام الرسالة، يقول:« ثم إخراجك ما أخرجت إخراجَ محقِّقٍ متيقن، لا إخراجَ متأمِّلٍ ناظرٍ، فراجِعْ أحْسَنُ، واعلَمْ أنّا لم نَحُلْ عن حبس الرأي في حفظ حقك ساعةً من ليل ولا نهار، في سرٍّ ولا علانية،

(١) انظر في فائدة تكرار الحرف: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة، ط١٩٦٧م، ص٢٣٩، والأسلوبية وتحليل الخطاب، الدكتور منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٨.

(٢) جمهرة الرسائل، ١٠١/٣.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي(ت٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص٣٠.

(٤) جمهرة الرسائل، ١٠٦/٣.

(٥)سر الفصاحة، ص٣٠.

ولا غَيْبةٍ ولا شهادة، ولا نأتي أمرًا ينْقُص من حُرمتنا، والسلام»[1].فالهمزة ألمه الذي يعانيه، وأمله الذي يحيا به، والحاء حاله الصادقة التي تشف عنها كلماته، وقبلها سيرة حياته، وحال الوشاة الكاذبة التي لا تحتاج إلى برهان، والخاء أخوّته التي يسعى للحفاظ عليها، وخيبة الأمل التي يخشى أن يرجع بها، والعين عينه التي لا تكتحل بنوم، وعتابه الذي يرجو أن يُزيل الجفوة.

وفي نهاية هذا التطواف لا أزعم أنِّي قد وَفَّيْت هذه الرسالة حقّها، لكن حَسْبي أنّي اجتهدتُ، وحاولت أن أبرز معالمها وجوانبها الفنيّة.

(١)جمهرة الرسائل، ١٠٧/٣.

الخاتمة

وصلتْ رحلةُ البحث في رسالة العتاب لغسّان بن عبد الحميد إلى نهايتها، وقد توقّفت خلالها في محطات كثيرة ومهمة، وحاولت في كلّ توقّف أن تصف الظاهرة وصفًا دقيقًا، وأن تفسّرها تفسيرًا شافيًا، وقد خلصتْ إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، أهمّها:

١- الراجح أن غسّان بن عبد الحميد الكاتب هو نفسه غسّان بن عبد الحميد راوي الحديث.

٢- عدّ ابن طيفور رسالة غسّان من الرسائل المفردات، وأكّد البحث أنّ ما قاله صحيح.

٣- يحتاج ما تبقّى من كتاب المنثور والمنظوم لابن طيفور (ت ٢٨٠هـ) إلى طبعة جديدة، تَلُمُّ شعثه، وتجمع متفرّقه.

٤- رسالة غسّان في العتاب أشبه ما تكون بوثيقة في حقوق الأُخوّة.

٥- الخصائص الكتابية واضحة في رسالة العتاب، من توليد الجمل، ونموّها، وطولها، والتسلسل المنطقي.

٦- اعتمد غسّان كثيرًا على النفي بلام الجحود، وهو أقوى في النفي؛ لأنه ينفي التهيؤ للفعل والإرادة له، وهذا أبلغ من نفي الفعل، كما أن فيه نفي المناسبة بين أخلاق الشخص وبين الفعل الذي ينفيه عن نفسه.

٧- تشفُّ الرسالة عن قوّة عقل غسّان، وامتلاكه نواصي الحجج، فقد حاجّ صاحبه بحجة القيم، والمشترك العام، وحجة التبذير، وحجّة التعايش، والحجة القائمة على العلاقة التبادلية، وحجة الاشتمال.

٨- حضر الاستفهام بقوة في رسالة العتاب، وكان أداة قوية من أدوات الإقناع، لعُمْقه، وبنائه على مقدِّمات.

٩- الاستعارة هي اللون البياني الطاغي على الرسالة؛ ولا عجب في ذلك؛ فهذا يتماشى وطبيعة العصر وطبيعة عقل غسّان.

١٠- يبدو أثرُ رسائل عبد الحميد واضحًا في رسالة العتاب، ومما يكشف ذلك كثرةُ الترادف والاستعارات والطباق.

١١- صحّة الأقسام مما يلفت الانتباه في رسالة غسّان، وهو أداة مهمة من أدوات الإقناع.

١٢- السجع موجود في رسالة غسان لكنّه غيرُ ملتزم، وكَثُرَ الترادف الذي ينتهي إلى الازدواج، وإلى جانب ذلك نرى الجناس والطباق والمقابلة. وهذه هي سمات الرسائل في بداية العصر العباسي.

١٣- يُوصي البحث بدراسة نثر غسّان كلّه؛ فهو جديرٌ بذلك، ولا يزال روضة أُنُفًا.

المصادر والمراجع

١- إحكام صنعة الكلام، الكُلاعي (من أعلام القرن السادس)، ت: د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.
٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٣- الأسلوبية وتحليل الخطاب، الدكتور منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط١، ٢٠٠٢م.
٤- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج بإشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس، د.ت.
٥- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٩، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
٦- البلاغة العربية فنونها وأفنانها (علم المعاني)، الدكتور فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٧- تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية)، عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٨- التاريخ الكبير، الإمام البخاري ت ٢٥٦هـ، تحقيق: هاشم الندوي وآخرين، دائرة المعارف العثمانية، د. ت.
٩- تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري ت ٦٥٤هـ، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
١٠- تذكرة الحفاظ، الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تصحيح: عبد الرحمن بن يَحْيَى المعَلَّمي، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت، عن طبعة الهند.
١١- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م.
١٢- تيسير علوم الحديث، عمرو عبد المنعم سليم، دار ابن القيم ودار ابن عفّان، ط٢، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
١٣- الثقات، ابن حبّان ت ٣٥٤هـ، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٤- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم ت ٣٢٧هـ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
١٥- جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
١٦- الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، الدكتورة سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١١م.
١٧- الحجاج في القرآن، الدكتور عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.
١٨- حجاجية الاستفهام في اللسان العربي، عبد الحق بالمادن، مقالة على الإنترنت، موقع نماء للدراسات والبحوث، سبتمبر ٢٠١٩م.
١٩- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجّة الحَمَوي، ت: دكتورة كوكب دياب، دار صادر، ط٢، ٢٠٠٥م.
٢٠- الخصومة بين الوعي الشفاهي والوعي الكتابي، مقالة لمحمد بريري على الإنترنت، مجلة الجسرة الثقافية، ٢٥ يناير ٢٠١٠م.
٢١- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د. ت.
٢٢- الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، د. صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧م.
٢٣- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي(ت٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٢٤- سير أعلام النبلاء، الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٥- شرح الرضي الإستراباذي على الكافية، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاز يونس، بنغازي، ط٢، ١٩٩٦م.
٢٦- الشفاهية والكتابية، والترج. أونج، ترجمة: د. حسن البنا عز الدين، مراجعة: د. محمد عصفور، عالم المعرفة، فبراير ١٩٩٤م.
٢٧- الصداقة والصديق، أبو حيّان التوحيدي، ت: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٤١٩هـ.
٢٨- العصر العباسي الأوّل، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة العاشرة.

٢٩- عيار الشعر، ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ)، تحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ — ٢٠٠٥م.
٣٠- الفهرست، النديم ت ٣٨٥هـ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت.
٣١- في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، الدكتور عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر، تونس، ط١، ٢٠١١م.
٣٢- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة، ط١٩٦٧م.
٣٣- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري ت ٣٩٥هـ، تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
٣٤- كتاب بلاغات النساء، ابن طيفور ت ٢٨٠هـ، صحّحه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عبّاس الأوّل، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.
٣٥- كتاب سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، د. ت.
٣٦- لسان الميزان، ابن حجر ت ٨٥٢هـ، تحقيق: عبد الفتاح أبو غُدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣٧- اللغة والحجاج، الدكتور أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط١، ١٤٢٦هـ _ ٢٠٠٦م.
٣٨- اللغة، فندريس، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م.
٣٩- معاني النحو، الدكتور فاضل حسن السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٤٠- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق وشرح: عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٤١- من أسرار اللغة، دكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٦م.
٤٢- المنثور والمنظوم (القصائد المفردات التي لا مثيل لها)، تحقيق: الدكتور محسن غيّاض، تراث عويدات (بيروت — باريس)، ١٩٧٧م.
٤٣- المنثور والمنظوم، القسم الأوّل من الجزء الثالث عشر، تحقيق ودراسة: ضيف الله سعد حامد الحارثي، رسالة ماجستير، جامعة أمّ القرى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٤٤- المنحى التداولي في التراث اللغوي- الأمر والاستفهام نموذجين، خديجة الشنقيطي، عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٦م.
٤٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت.
٤٦- نثر الصحابة أغراضه وخصائصه، د. محمد شمس عُقاب، دار الأمل، ط١، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
٤٧- نزهة النظر شرح نخبة الفكر، ابن حجر ت ٨٥٢هـ، خرّج أحاديثه: محمد خليل الطوخي، مكتبة الرحاب، القاهرة،ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
٤٨- نظرية الأدب، الجزء الأوّل، الدكتور عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٧م.
٤٩- نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي، نبيل خالد أبو رباح، إشراف: د. محمد زغلول سلّام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
٥٠- الوافي بالوفيات، الصفدي ت ٧٦٤هـ، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٥١- الوزراء والكتاب، الجهشياري، ت ٣٢١هـ، قدَّم له الدكتور حسن الزين، دار الفكر الحديث، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

مُلْحَقٌ فيه رسالةُ غَسَّان بن عبد الحَمِيْد في العتاب

قال ابن طيفور:

ومن الرسائل المفردات رسالة غَسَّان بن عبد الحميد المدائني كاتب جعفر بن سليمان في العتاب:

«أما بعد: فإنَّ الله جعل العباد أطوارًا في أخلاقهم، كما جعلهم أطوارًا في صُوَرهم، وجعل بينهم أمورًا يتآلفُون عليها، ويُعْمِلُون أخْلامهم فيها مِنْ حُرَم يتجاملون بها، وحقوقٍ يتنازعونها، ومودَّةٍ يتعاطونها، وأخُوَّةٍ يتداولونها، تُرْعى بوفاء، وتؤدَّى بأمانة، وتُضيَّع بتقصير، وتُنتَقص بخيانة، ليس مَنْ أُدّيَتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعَدَ من المؤدِّي لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه، وليس مَن ضُيّعَتْ منه بأشقَى ممن ضيَّعها فيما يُدْخِل من التقصير عليه، فإنه من أخطأهُ الوفاءُ من أخيه، فإنما يَدْخل عليه تقصيرُ غيره، ومن ضيَّع الوفاءَ لإخوانه فقد أَدخلَ النقصَ في خاصَّة نفسِه، والمرء يجدُ من أخيه إذا خانه بَدَلًا، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرَت به متحوَّلًا؛ فليس نقصٌ يستبدلُ به كنقصٍ لا يستطيع مزايلتَه.

وقد ألبس الله عبادًا من عباده نِعَما، وجعل لهم في صلاح الأمور قَسْمًا، فكان ذلك عندهم ذريعةً يرعونها، لِما أُلْحق عليهم فيها مما يكون صلاحًا وتمامًا لها، لئلا يعملوا بانتقاصٍ لأمرٍ بلَّغهم الله إياه، ولا بوضيعةٍ لخُلُقٍ رفعهم الله إليه حتى نُسِبَ إليهم ونُسِبوا إليه، فسمِّي لهم فِعْلًا وسُموا له فُعُلًا وأوْلى من أُلبِسَته نعمةٌ، وأُجْري لها على الألسُن صفةٌ، أن يكون عملُهُ موافقًا لما صنَعَ الله به، ولا يكون لما أصلح منه مُفْسِدا، ولا يكون له مخالِفا.

ولم أزَلْ أتعَرَّفُ مِن نِعَم الله عز وجل عليَّ، قديمًا وحديثًا، ويافِعًا ومُسنًّا، فيما أبلاني وأظهَرَ مني، وأثبتَ معرفتَه عند الناس، ما أصبحتُ أَرَى استصلاحهُ والتوقّيَ لتغيُّره حقًّا عَلَيَّ واجبًا، فليس مَن كانت منه فجيعةٌ لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادًا، واختارَ واختارُوا، فوقعَ رأيُه عليهم، ووقع رأيُهم عليه، وارتضوه لأنفسهم، وارتضاهم لنفسه، واقتصروا عليه بمودتهم، واقتصر عليهم بمودَّته، فحمَّلوه أُخُوَّتَهم، وحمَّلهم أُخوَّته، واسترعَوه الوفاءَ لهم، حتى ثبّت اللهُ بينهم وبينه ما كان داعيًا لكل رأي جميل، ناعيًا لكل صَنيعٍ مَعيبٍ، وأمرٍ مُرِيب، فأيُّ نقصٍ أكثرُ، وأيُّ دناءةٍ أبْيَنُ، من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقةٍ، قد حُفِظتْ منه حُرمةٌ، واعتُقدت بها عليه أمانةٌ، فوجبَتْ منه مُصافاة، وانتُظِرَت منه صِلةٌ، ثم ينكشِفُ عن خيانة وغدْر وقطيعةٍ وفجعةٍ؟

ثم أحقُّ مَنْ كنتُ له على الجميل فيما بيني وبينه، أهلُ الفضل في المنزلة، والثقة في المكافأة، والأمانة في الوفاء، والجمالِ في الإخاء، الذين يُرْغبُ فيهم إنْعَامُه، ويُوثقُ بحفظهم

اليسيرَ من الحُرْمة، فما كنتُ لأقطعَ خاصَّتي ممن يرغب في عامتي، ولا لأضيّعَ الكثيرَ ممن لا يضيع اليسيرَ، ولا ألْقَى أخًا شاهدًا، بغير ما أكون عليه غائبًا، فأكونَ قد لقيتُه بِدَلٍ، وغِبْتُ عنه بقَذَرٍ، ويكون قد استودَعَني شيئًا حفِظتُ ضِدَّه وسترتُ سواه، بل أنا لأخي حين يَغِيبُ عني وأَرعاه، أحفظُ ميّ حين يشاهِدُني فيعابِنُ ما يكونُ مني، ولم يكن لِيَمُتَّ بالأسباب إليَّ أهلُ الفضل والأحساب، لا يدعوني إليهم إلا الرغبةُ فيهم، والتزيُّنُ بأحسابهم، والاستمدادُ بمُدَدهم، حتى إذا استحكمتْ حُرْمتُهم وتظاهرتْ، ووجبَتْ عظُمتْ وصرتُ إمّا محافظًا يَزِينُه حِفاظُه، وإما مضيّعًا يَشِينُهُ تضييعُهُ عمِلتُ في ذلك بما يقطَع ما أردتُ صلتَه، ويَشِينُ ما أردتُ زَيْنَه، ويصِيرُ عليّ ولا يَصِير لي، ويزهِد فيَّ نُظراءَهم، إذا مددتُ بالأسباب إليهم، فأكون عند من اعتقدتُ إخاءَهُ مَقْلِيًّا، قد تغيَّرتْ عنده منزلتي، ومن أردتُ استعارة مودَّته مكروهًا، لا يقبل ذلك مني، إني إذَن إلى نفسي لَمُسِيءٌ، وبحَظِّي لمخطِئ.

وما كنتُ لأختارَ الإخوان على فضلهم، ثم أسير فيما بيني وبينهم بما يخالف أخطارهم ومنازلهم، لَبئس إذَنْ ما خالطتُ به الأكفاء، وراقبتُ به الحُرَمَ، وأسلمتُ به المودةَ التي قد أعطى الله فيها النعمَ، وأترك مخالطةَ الأكفاءِ قبل اعتقادها، وإن كان الفضلُ فيما بيننا أحسنَ من إيجاب حقها، ثم الاستخفافِ بها، فإن المجَانبَ المستورَ خيرٌ من المحافِظِ المذمومِ، ومَن لِيمَ على جميل لم يتناوله، أحسنُ ممن ليم على سَمِجٍ قد أتاه.

وإنه بَلَغَنِي أن غاشًّا ظالما أتاك بأمرٍ، لم أكن له أهلًا، ولم تكن بقَبوله خَلِيقًا، لأني لم أكن لأشباهِهِ معروفًا، ولم أكن على استماع مِثله مَخُوفًا، فوجد فيك مَساغًا، وعندك مستَقَرًّا، وكنتُ أحسب منازل إخوانك عندك، والثقة لهم منك في حِصن حَصينٍ، ومحلّ مكين، لا يناله أكاذيب الكاذبين، ولا أقاويلُ المفسدين؛ وذلك أن الكاذب كان بالتُّهْمَة على منزلتي وحُرْمتي، أحقَّ مني بالتُّهمَة على رأيي وخُلقي، وأنا كنت عندك بالثقة في وفائي، أحقَّ منهُ بالتصديق في عَضِيهتِه إياي، فإنَّ الأخ المخبور، أولى بالثقة من السَّاعي بالكذب والزُّور.

وإذا كان يُخْفِظ الإخوانَ ما هو مَثْلومٌ بأيدي السفهاء، إذا شاءوا سَعَوا فقُبِل قولُهم، فكيف تَبْقى على ذلك أُخوَّةٌ، أو تُرْعى معه حُرمةٌ، أو يَصْلُح عليه قلبٌ، أو يسلَم صَدْرٌ؟ وكنتَ إذ حَذَّرتَ أخاك من أهل الدناءة حقيقًا أن تَحْذَرَهُم في إخوانك الذين وقع إحسانُك عليهم، فلا تقبلُ سِعايتهم بهم، وكيف تسخَط على أهل الدناءة لإخائك وتَرضَى قولَهم على إخوانك؟ لقد عَرَفتَ أنَّ على الأخ مِنْ ردِّ الكذب عن أخيه ما حَسّنَ الغيب له، فإذا لم تكن لذلك رادًّا مكذِّبا، فهَلَّا كنتَ فيه واقفا مُتَأمّلا حتى تكشِفَهُ ويتبيَّن لك حقُّه من باطله! فإنْ وجدته حقًّا

أتيتَ ما أتيتَ على بينة لك فيها حُجَّةٌ، وإن وجدتَه باطلا كان أن تستخرجَ أخاك من ثُمَة، خيرًا من أن تُقيم له على سَخْطةٍ ولم يكن منه إساءةٌ.

فقد كان إخوانك يرجُون إن أساءوا أن يأتي على ذلك فضلُك، ولا يخافون إن أحسنوا أن يضيعَ ذلك عندك، لقد طالت عِشرتي، وتردَّد خَبرُك عليَّ في حالات متصرِّفة، ومنازلَ مختلفة، لا يَصْرف حالي لك حالٌ انصرفَتْ، ولا يَقْلِبُ رأيي منزلةٌ انقَلَبَتْ فكان ذلك مني في غِياب سلطانك، ثم كان في مُؤاتي زَمانك، والناس في ذلك تنصرف عنك حالاتُهم، ويختلف عليهم رأيُهم، فلم تكن جاجةُ كثيرٍ من الصديق في السلطان إلا أن يأكلوك ويأكلوا بك، ويتعجَّلوا يومَك مِن غدك، ولا ينظرون لَكَ ولا يبالون ما دخل –إذا أصابوا– في جَنْبك، فكانت حاجتي الإبقاء عليك، والادّخار لك، والاستغفار لما يتعجَّل المتعجِّلون منك مع ما أؤمل فيك، ولم تكن حاجتهم حين نَبا بك الزمان إلا أن يخذلُوك ويدفنوا مودتك ويُميتوا ذكرَ إخائك، ويتقرب أكثرهم بك، ويسمو بعداوتك، وإن كانوا قد أخلّوا بصداقتك، وكانت حاجتي حفظك وحياطتك، أفما كان في هذا ما تَرُدُّ به عني بَغْيَ باغٍ، وسعاية ساعٍ؟

ما كنتُ لأُعادِيَ مَن غَشَّك، وأعْتَتِب بالغشّ لك! ولَا لأوالي من ناصَحَك وأقطع نصيحتي لك! ولا لأُعَرِّض نفسي فيك وأستخِفّ بعد ذلك بحقك! فأكونَ عونًا لمن عاديتُه فيك، مفارقًا لمن واليتُ فيما وَاليتُه عليه، معرّضًا في أمرٍ لأسَلِّم له ما قِبَلي، لقد بحمد الله خَبَرَني الإخوانُ في طول هذا الزمان، فبغير هذا عَرَفوني، وعلى غيره احتملوني، فما كنتُ لأعايِشك بغير ما عايَشتهم، ولا لأعمَلَ في إخائك بغير ما عمِلْتُ في إخائهم، وَأنت أعظمهم منزلةً، وأقدمهم مودةً، وأكملهم ثقة، وأزينهم أُخُوَّةً، وأجملهم محافظةً، فما أعظمَ عندي أن أُنْزَل منزلةَ استخفافٍ بحقك، أو ثُمَةٍ عندك على براءةٍ فيما بيني وبينك! فإنه إن تكن البراءة أخرجتني من التقصير عندك في الظن بك، فغفر الله لك، لقد جَرَى عَلَى لسانك ما لم يَجْرِ عَلَى لسان أخ قبلك، واضطررْتَني في إخائك إلى معاذيرَ لم يضطرَّني إليها أحدٌ سِواك، ولو لم أكن بفضلك عارفًا، وعَلَى نصيبي منك شَحِيحًا، لَشَححْتُ على ما سلف مني فيما بيني وبينك أن يَذْهَب باطلًا، ويصيرَ ضائعًا، ويتحول حَسَنُه قبيحًا، ومعروفه مُنكرًا، ولو كانت منك إساءة فيما بيني وبينك لرأيت أن قد وَجَبَ عَلَى من حقك ما يُوجبُ احتمالَ ذلك، فكيف أَهتِك حُرمتَك عن غير إساءة منك؟

ولو أني قد هجوتُك لكنتُ لنفسي بهجاؤك، أهْجَى مني لك، لأني بذلك لها مكذِّب فيما سلف من مِدْحتي إياك، وثنائي عليك، وقولي فيك! فهل يهجو امرؤ غيرَه بأشدَّ من إكذابه

نفسَه؟ مع قطع الأخوَّة، وَهَتْك الحُرمة، ولو كنتُ شاعرًا ألتمسُ بشعري موضِعًا، وأطلب له مَخْرَجا، ما جعلت مَخْرَجي في صديقي، الذي هجاؤه عليَّ أشدُّ منه عليه، فإن ظهر افتضحتُ، وإن خفِيَ احتفظت، وَلو وجدت من أهل الدناءة والسَّفاه مَن شيَنُه بهم ألصقُ، وَهم به أحقُّ، ما أنا بالقول فيهم بِحَرِيٍّ، وايمُ الله إني لأرى الشعرَ في جميل الأمور، وحُسْن الثناء على الصديق قبيحًا، فكيفَ إذا كان في الظلم العدوَانُ، والفجعة للإخوان؟ فاجتمعَتْ نقيصة الشِّعر ونقيصة الغدر.

وَلقد ثقُل عليّ مَا كان من ذلك وهو بَاطل، صونًا للنفس عنه، فكيف أَرْضَى أن يكون مني ما أستحِقُّه به؟ وإني لأرجو أنْ أكون مِمَّنْ يصبر للوفاء على بليّةٍ إنْ نَزَلتْ، فكيف أخرج مِنْهُ بغير اضطرار إلى غيره؟، ولو كنت على وقع عليه لكنت بالنقص على نفسي مُقِرّا، وكيف أَسخَطُ على من أساء القول إليَّ، إذا أسأتُ الفعلَ إلى نفسي؟ وأُسَرُّ بأن يُحْسِن لي القولَ وأنا مسيءٌ إلى نفسي في الفعل؟ فهَلَّا رغبتَ بي أن أكون أتيتُ ذلك، كما رغبتُ بك عن التصديق به فيما بيني وبينك! ولكنك حَبَسْتَ كتبك عنا وقطعْتَ تعهُّدَك، ونحن نُحْسِنُ الظن بك، وبحالنا عندك، لا نُنْزِلُ ذلك إلا على العُذر لك، والشغلِ منك، ثم إخراجك ما أخرجت إخراجَ محقِّقٍ متيقن، لا إخراجَ متأمِّلٍ ناظرٍ، فراجِعْ أحْسَنُ، واعلَمْ أنّا لم نَخُلْ عن حبس الرأي في حفظ حقك ساعةً من ليل ولا نهار، في سرٍّ ولا علانية، ولا غَيْبةٍ ولا شهادة، ولا نأتي أمرًا ينْقُص من حُرمتنا، والسلام».